

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

رِحْلَةٌ فِي انْقِلَابِ الْمَوَازِينِ، وَأَصْنَافِ
الْمَصَائِرِ، وآيَاتِ الْخَلْقِ، وَيَقِينِ الْلِقَاءِ



تَأْلِيف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

رِحْلَةُ فِي انْقِلَابِ الْمَوَازِينِ وَأَصْنَافِ الْمَصَائِرِ وَآيَاتِ الْخَلْقِ وَيَقِينِ اللَّقَاءِ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

مقدمة: السورة التي تنزع عن العالم قناعه

ليست سورة الواقعة حديثاً عن حادثة ستأتي فحسب، بل هي يدٌ من نور تمتد إلى الإنسان وهو غارق في يومه العابر، فتوقظه من سحر المألوف، وتنزع عن الأشياء أسماءها المؤقتة، وتربه العالم كما سيدو حين تنتهي مدة الاختبار. نحن نسمي ما حولنا بيوتاً وأموالاً ومناصب وأجساداً وأعماراً، وننسى أن هذه الأسماء ليست الحقائق النهائية للأشياء، بل هي الأسماء التي تحملها في الطريق فقط؛ فإذا وقعت الواقعة سقطت عنها أسماءها الأولى، وانكشف ما كان مستوراً تحت زينتها، وصار البيت أثراً، والمال حساباً، والمنصب سؤالاً، والجسد تراباً ينتظر النداء، والعمر صحيفةٌ لا يستطيع صاحبها أن يزيد فيها حرفاً واحداً. ولهذا تبدأ السورة من النهاية؛ لأن الإنسان لا يفهم الطريق حقاً حتى يرى إلى أين ينتهي، ولا يعرف قيمة اختياراته الصغيرة حتى يشاهد صورتها الأخيرة في الميزان، ولا يتحرر من فتنة اللحظة حتى يرى اللحظة وهي تنطفئ أمام الأبد.

إنها سورة تهدم الاستقرار الكاذب الذي يبينه الإنسان في داخله، ذلك الشعور الخفي بأن العالم سيظل على هيئته، وأن الأرض ستبقى صلبة تحت القدمين، وأن الجبال ستظل أوتاداً في الأفق، وأن مواقع الناس التي صنعتها القوة والثروة والنسب ستبقى حقائق لا تبدل. تأتي الواقعة فتقول له: إن أكثر ما تراه ثباتاً قابل لأن يصير هباء، وإن أكثر ما تظنه بعيداً آت، وإن اليوم الذي تنفاوت فيه الوجوه بحسب الإيمان والعمل أشد حقيقة من كل التصنيفات التي ابتكرها البشر لأنفسهم. ففي الدنيا قد يتقدم من يستحق التأخر، وقد يؤخر من يستحق التقدم، وقد يعلو صوت الباطل حتى يُخيل للناس أنه الحق، وقد يمشي المؤمن المخلص مجهولاً لا تلتفت إليه العيون؛ أما هناك، حين تقع الواقعة، فإن كل شيء يعود إلى موضعه الصحيح، وتتكشف القيمة الحقيقية للإنسان، ويصنف الخلق لا بحسب ما ادعوه لأنفسهم، بل بحسب ما صاروا إليه عند الله.

وسورة الواقعة لا تكتفي بأن ترسم مشاهد المصير، بل تعيد الإنسان بعد أن تهزه مشاهد القيامة إلى أبسط الأشياء التي يمر عليها كل يوم: إلى نطفة الخلق، وحبّة الزرع، وقطرة الماء، وشعلة النار. كأنها تقول له: إذا كنت تستبعد الإعادة، فانظر كيف بدأت؛ وإذا كنت تشك في القدرة، فتأمل الخبز الذي تأكله والماء الذي تشربه والنار التي توقدها؛ وإذا حجبك العادة عن رؤية الآية، فأزج عن بصيرتك غبار الألفة، فإن الكون كله مملوء ببراهين البعث، ولكن العين التي تكرر النظر بلا تدبر قد تعبر من بين المعجزات ولا ترى شيئاً. ثم تبلغ السورة بالمخاطب فراش الموت، حيث تتساقط آخر دعاوى الإنسان، ويقف الأقربون حول المحتضر عاجزين، وتخرج الروح في طريق لا يملكون إغلاقه ولا تغييره؛ وحينئذ لا يبقى إلا أن يتلقى الإنسان منزلته الأخيرة: روحاً وريحاناً وجنة نعيم، أو سلاماً من أصحاب اليمين، أو نزلاً من جحيم وتصلية جحيم.

هذه رحلة في سورة لا تسمح للقلب أن يبقى كما كان. سنخفي معها من زلزلة الأرض إلى سكون اليقين، ومن انهدام الجبال إلى بناء البصيرة، ومن انقسام الخلق إلى الأصناف الثلاثة

إلى اجتماعهم جميعاً أمام حقيقة واحدة، ومن موائد الجنة إلى شجرة الزقوم، ومن أسرار الماء والنار إلى السر الأعظم في خروج الروح، حتى نصل إلى الكلمة التي تختصر الطريق كله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾. هنالك لا يعود التسبيح خاتمة لفظية للسورة، بل يصير جواب الإنسان الذي رأى الحقيقة بعين قلبه، فعرف أن الرب العظيم الذي خلق ودبر وأمات وأحيا لا يليق به إلا أن ينزهه عن كل نقص، وأن يُعبد دون سواه، وأن يخني القلب لعظمته قبل أن يأتي اليوم الذي تخني فيه الموجودات كلها لسلطانته.

قال الله تعالى:

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَذِبَةٌ ۖ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾.

تبدأ السورة بـ ﴿إِذَا﴾، فتفتح أمام الوعي باباً على الزمن الآتي، لكنها لا تقول: إن وقعت الواقعة، لأن «إن» قد ترد فيما يتوقع وقوعه أو يحتمل، أما ﴿إِذَا﴾ فتدخل بالقلب إلى أمر قد فرغ من حقيقة وقوعه، ولم يبق إلا موعد ظهوره. ثم تسمي القيامة ﴿الْوَاقِعَةَ﴾، وكأن هذا الاسم وحده كافٍ لتعريفها؛ فهي الواقعة التي تنضال إلى جوارها كل الوقائع، والحادثة التي إذا جاءت جعلت ما قبلها مقدمة قصيرة، وما بعدها هو الحياة التي لا تنقضي. كل ما يملأ صحف الناس اليوم من حروب وانتصارات وانهارات وتحولات سيغدو من أخبار العالم الذي طويت صفحاته، أما الواقعة فهي الخبر الذي لا يعقبه خبر من جنس أخبار الدنيا، لأنها لا تغير فصلاً من التاريخ، بل تنهي التاريخ نفسه، ولا تنقل السلطان من يد إلى يد، بل تسقط من الأيدي كلها وهم السلطان، وترد الأمر ظاهراً كما كان حقيقة دائماً إلى الله الواحد القهار.

وفي اختيار الفعل ﴿وَقَعَتِ﴾ قوة لا تحملها كلمة رخوة؛ فالوقوع يشعر بانتهاء المهلة، وحضور الشيء بعد ترقبه، واستقراره بحيث لا يمكن رده إلى الغياب. إن البشر يستطيعون قبل الواقعة أن يكذبوا بها، وأن يجادلوا في إمكانها، وأن يسخروا من الوعيد، وأن يدفئوا صوت الفطرة تحت ضجيج الشهوة، لكن قدرتهم على التكذيب لا تغير شيئاً من حقيقتها؛ فالشمس لا تنطفئ لأن أعمى أنكرها، والطريق لا ينتهي لأن المسافر غفل عن نهايته، والموت لا يتراجع لأن الإنسان عاش كأنه لن يموت. فإذا وقعت الواقعة انتهى زمن الأقوال، وصارت الحقيقة حضوراً يحيط بالمكذب من كل جانب، وعندئذ لا يملك أن يصنع بينه وبينها ستاراً من الوهم.

﴿لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَذِبَةٌ﴾؛ فلا نفس تستطيع أن تكذب بها يومئذ، ولا قوة تقدر أن تصرفها، ولا خبر من أخبار الله عنها يتخلف. لقد كان التكذيب في الدنيا ممكناً من حيث النطق، لا من حيث التأثير؛ كان الإنسان يستطيع أن يقول: لا بعث، لكنه لا يستطيع أن يجعل قوله حقيقة، وكان يستطيع أن يضحك من ذكر القيامة، لكنه لا يستطيع أن يوقف سيره إليها. فإذا جاءت انقطعت المسافة بين الخبر والمشاهدة، وبين الوعيد ووقوعه، وبين ما كانت الألسنة تجادل فيه وما تراه الأبصار رأي عين. هنالك يصمت الجدل لا لأن المكذب اقتنع بطريق الاستدلال الهادئ، بل لأن الحقيقة صارت أكبر من أن تُنكر، ولأن الذي كان يقول: أين يوم الدين؟ صار واقفاً في قلب يوم الدين.

وما أكثر الأكاذيب الصغيرة التي يعيش بها الإنسان لأنه يكذب في أعماقه بالواقعة الكبرى؛ إنه يعرفها بلسانه، لكنه يعزلها عن تفاصيل حياته، فيتصرف وكأن المال باقٍ، وكأن القوة لا تزول، وكأن المظلوم لن يقف إلى جوار ظالمه، وكأن الكلمات التي ألقاها في القلوب لن تعود إليه، وكأن الخلوات التي لم يشهدها الناس قد ضاعت في ظلامها. وليس التكذيب بالآخرة دائماً عبارة فلسفية يرددها ملحد، فقد يكون سلوكاً يمارسه مؤمن غافل حين يعلم أنه سيحاسب ثم يعيش بلا حساب، ويوقن بالموت ثم يؤجل التوبة، ويقرأ أخبار الجنة والنار ثم يختار في ساعته ما يقوده إلى غير ما يتمنى. الإيمان الحقيقي بالواقعة ليس أن تعرف اسمها فحسب، بل أن تدخل حقيقتها في قراراتك، حتى يصير الغد الأبدى حاضراً في يومك، ويصبح كل اختيار صغير خطوة واعية نحو المصير.

ثم تأتي الكلمتان اللتان تقلبان الموازين كلها: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾. إنها تخفض أقواماً ووضعوها في الدنيا على القمم، لكنهم لم يحملوا من أسباب الرفعة عند الله شيئاً، وترفع أقواماً مروا في الأرض هادئين، لا تُفتح لهم أبواب العظماء ولا تسبق أسماءهم الألقاب. تخفض غرور القوة، وترفع خضوع الإيمان؛ تخفض من استند إلى الخلق، وترفع من افتقر إلى الخالق؛ تخفض وجهاً كان يتعالى على الناس، وترفع جبيناً طال سجوده في الأضراس؛ تخفض مآلاً لم يؤد حق الله، وترفع كسرة خبز قدمت بإخلاص؛ تخفض كلمة دوى صداها في المجالس لأنها قيلت رياءً، وترفع دمعة لم يرها إلا الله لأنها خرجت من قلب صادق.

إن الدنيا كثيراً ما تخطئ في ترتيب الناس؛ لأنها تحكم بما يظهر لها من أسباب النفوذ والجمال والجاه، أما الواقعة فتعيد ترتيبهم بحسب الحقائق التي حملوها في قلوبهم وأعمالهم. قد يكون الرجل في الأرض وضيعاً في أعين الناس، لكنه عند الله مرفوع، وقد يكون مرفوعاً في المجالس وهو عند الله ساقط. وبين الرفعتين مسافة لا تقاس بالمكان، بل بالميزان. وما أخطر أن ينفق الإنسان عمره يصعد سلماً منصوباً على الجدار الخطأ، حتى إذا بلغ أعلاه اكتشف أن صعوده كله كان هبوطاً، وأن التصفيق الذي أحاط به لم يكن شهادة نجاة، وأن الشهرة التي ظلها خلوداً لم تمنحه عند انكشاف الحقائق وزناً.

إن ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ ليست وصفاً ليوم القيامة وحده، بل ميزان ينبغي أن نصصح به رؤيتنا من الآن. فلا نحسد من رفعتة الدنيا إن كانت رفعتة تبعده عن الله، ولا نشفق على من خفضته الظروف إن كان انخفاضه يزيد قرباً وثباتاً. ليست كل خسارة هبوطاً، ولا كل مكسب صعوداً؛ فقد يفقد الإنسان شيئاً من الدنيا فترتفع روحه، وقد يعطى منها ما يشتهي فتسقط بصيرته. وقد يكون البلاء بدءاً ترفعه من التعلق بالأسباب إلى الثقة برب الأسباب، وتكون النعمة التي لم يشكرها ثقلاً يخفضه وإن رآها الناس جناحين. ومن فهم هذه الآية لم يعد يسأل فقط: ماذا كسبت؟ بل يسأل: إلى أين رفعتني ما كسبت؟ ولا يسأل فقط: ماذا فقدت؟ بل يسأل: ممّ حررتني ما فقدت؟

قال الله تعالى:

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۖ وَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۖ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۖ﴾.

بعد أن أعلنت السورة وقبوع الواقعة، أخذت ترسم أثرها في أعظم ما يراه الإنسان رمزًا للثبات: الأرض والجبال. الأرض التي حملت المدن، وشهدت الممالك، واستقبلت خطوات الأجيال، وابتلعت أجسادهم واحدًا بعد آخر، تُرج رَجًا؛ فلا تبقى في سكونها المعهود، ولا تظل المسرح المستقر الذي يطمئن الإنسان إلى امتداده تحت قدميه. واللفظ نفسه يوحي بالحركة المتكررة العنيفة، كأن الأرض كلها قد أصبحت في قبضة القدرة تُهز حتى تنفصل عنها صورة العالم التي عرفناها. ليست زلزلة في ناحية محدودة يستطيع الناس أن يهربوا منها إلى ناحية آمنة، بل رج للأرض التي لا أرض سواها يلجؤون إليها. وحين يضطرب الملجأ نفسه، يعرف الإنسان كم كان ضعيفًا وهو يظن أنه مستقر، وكم كان محتاجًا وهو يتوهم أن ما تحته يملكه ويحميه.

كم بنى البشر على الأرض من أوهام البقاء! رسموا الحدود، ورفعوا القصور، وحفروا أسماءهم في الصخور، واقتتلوا على أشبار منها كأنهم سيخلدون فوقها، ثم ماتوا جميعًا وتركوها لمن بعدهم. ومع ذلك استمر الوهم، لأن كل جيل يرى الأرض باقية بعد من سبقه، فيحسب بقاءها النسبي وعدًا ببقائه هو. تأتي سورة الواقعة لتقول: الأرض نفسها ليست اخلود؛ إنها مخلوقة تؤدي وظيفتها إلى أجل، ثم يأتي عليها أمر ربها، فُرج رَجًا، ويكتشف الذين تنازعوا ملكها أنهم لم يكونوا يملكون منها إلا موضع خطوات عابرة وقبرًا ضيقًا.

ثم ترتفع العين إلى الجبال، تلك الكُلُّ الهائلة التي تبدو للإنسان عنوانًا للقوة والرسوخ، فإذا بها تبس بساء، وتفتت تفتيتًا، حتى تصير ﴿هَبَاءً مُنْبَثًا﴾. يا له من انقلاب في الصورة: ما كان يملأ الأفق صلابةً يصير ذرات متناثرة، وما كان يمنع النظر من العبور خلاله يصبح هباءً تمر فيه الأبصار. وكأن السورة لا تصف مصير الجبال وحدها، بل تضرب بها مثلًا لكل شيء استعظم الإنسان قوته من دون الله؛ فكم من جبال سياسية واقتصادية وعسكرية وفكرية بدت للناس غير قابلة للسقوط، ثم مر عليها أمر من الله فصارت ذكرى. فإذا كانت الجبال التي خلقها الله بهذه الضخامة ستصير هباء، فكيف يتكبر الإنسان بما جمعه من قوة محدودة؟ وكيف يركن إلى بناء هو وجبله والأرض التي تحمله داخل سلطان الله؟

والهباء يرى حين يدخل الضوء من نافذة فينكشف ما كان خافيًا من الذرات الدقيقة المتناثرة، وفي هذا التصوير من الرقة المرهبة ما يجعل الفناء مشهدًا محسوسًا؛ فالجبال لا تنكسر كالجاراة فحسب، بل تبلغ من التفتت أن تصير غبارًا منتشرًا لا يُمسك، وكأن الصلابة كانت

مرحلة عارضة، أما حقيقتها الأعماق فهي أنها قائمة بإمساك الله، فإذا جاء أمره زال عنها ما أودعه فيها من التماسك. وهكذا كل شيء: قوته ليست ملكاً ذاتياً له، بل عطاء مستمر من الله، وثباته ليس استقلالاً عن القدرة، بل أثر من آثار إبقاء الله له. إننا لا نعيش في عالم قائم بنفسه ثم يتدخل الله فيه من حين إلى حين، بل نعيش في عالم يقوم في كل لحظة بإمداده، ولو ترك الشيء إلى نفسه لما امتلك لنفسه وجوداً ولا بقاء.

وأمام هذا المشهد يتعلم القلب أن يبحث عن الثابت الذي لا تزلزله الواقعة. الأرض تُرج، والجبال تُبس، والأموال تُفنى، والأجساد تموت، والوجوه تتغير، والعهود البشرية تنقض، فما الذي يبقى؟ يبقى الله، ويبقى ما كان له، ويبقى العمل الذي اتصل به، وتبقى الكلمة التي ابتغت وجهه، والمحبة التي قامت فيه، والصبر الذي استمد قوته منه. وكل ما لم يتصل بالباقي يحمل في داخله بذرة فئائه، وإن أبطأ عليه الزمن. ولهذا كان التوحيد تحريراً للقلب من أن يجعل ثقله الأخير على شيء قابل للانتهيار؛ فهو لا يمنع الإنسان من أن يعمر الأرض، لكنه يمنعه من أن يتخذها إلهاً، ولا يحرمه من الانتفاع بالأسباب، لكنه ينقذه من عبادتها، ولا يخرجها من العالم، بل يجعله يعيش فيه بعين ترى نهايته فلا تفتن ببدائياته.

قال الله تعالى:

﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۚ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۚ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۚ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۚ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۚ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۚ﴾

بعد أن تبدل هيئة الأرض والجبال، تبدل أيضًا خرائط البشر. تختفي التقسيمات التي شغلتهم طويلاً: غني وفقير، حاكم ومحكوم، مشهور ومجهول، قوي وضعيف، منتمي إلى هذا البلد أو ذاك، منتسب إلى هذه الجماعة أو تلك؛ ويبقى التقسيم الذي كانت الحياة كلها امتحاناً له: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾. ليس السؤال هناك: من أي قوم كنت؟ بل: أي إنسان صرت؟ وليس: كم كان لك من النفوذ؟ بل: إلى أي جهة قادك قلبك وعملك؟ إن القيامة تختصر التعقيد الظاهري للحياة، وترد التنوع الهائل في سير الناس إلى ثلاث نهايات كبرى، لأن الطرق وإن كثرت تفصيلها تنتهي إلى وجهات محددة.

وحرف العطف في ﴿وَكُنْتُمْ﴾ ينقل المشهد من اضطراب الكون إلى انكشاف الإنسان، كأن السورة تقول: لا تنشغلوا بما سيحدث للأرض والجبال عن الذي سيحدث لكم أتم؛ فليس المقصود أن تتأملوا انبهار العالم من خارج المشهد، بل أن تروا موضعكم في داخله. الأرض تُرج وأتم عليها، والجبال تُبس وأتم واقفون أمام ربكم، ثم تُفرزون وفق الحق الذي عشتموه. وهنا يتحول السؤال من رهبة المشهد إلى رهبة المصير: في أي صنف سيكون اسمي؟ وأي جهة ستأخذني؟ وأي صورة خفية أبنها الآن لتظهر يومئذ؟

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾. لا تشرح العبارة منزلتهم ابتداءً، بل تفتح باب التعظيم والدعشة؛ فأَيُّ أصحاب هم، وما أسعد حالهم، وما أعظم ما ينتظرهم! إن اللغة تقف عند حدود الإشارة، لأن ما أعدده الله لهم أكبر من أن تستوعبه عبارة واحدة. والميمنة تحمل إحياء اليمين واليمن والبركة، فهم أهل الجهة المباركة، وأصحاب الصحائف التي تلقوها باليمين، والذين قادتهم اختياراتهم في الدنيا إلى السلام في الآخرة. لم يكونوا بلا ذنوب ولا ضعف بشري، ولكن الوجهة الكبرى في حياتهم كانت إلى الله، وإذا زلوا عادوا، وإذا ذكروا تذكروا، وإذا عرض لهم الحق لم يستكبروا عن قبوله. حملوا إيمانهم في معاملة الناس، وفي خلواتهم، وفي صبرهم على ما يكرهون، وفي شكرهم لما يحبون، حتى صارت اليمين التي يتلقون بها كتابهم يوم القيامة امتداداً للجهة التي اختاروها بقلوبهم في الدنيا.

وفي الجهة المقابلة: ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾. ويتحول أسلوب التعظيم هنا إلى تهويل، فيصير السؤال المفتوح باباً على هول لا تحيط به الكلمات. إن الشؤم ليس في زمن ولا طائر ولا علامة يتشاءم بها الناس، بل الشؤم الحقيقي أن يلقي الإنسان ربه وقد أفسد الفطرة

التي أُعطِيها، وأعرض عن النور الذي بلغه، وجعل عمره جسراً إلى غضب الله. وليس أشأم من نعمة استعملت في المعصية، وعقل سخر لتبرير الباطل، ولسان عرف الحق ثم خاصمه، وقلب توالى عليه المواعظ حتى صار لا يهتز، إن أصحاب المشأمة لم تأت شقاوتهم من ظلم وقع عليهم، فالله لا يظلم أحداً، بل صنعوا اتجاههم باختيارات متراكمة؛ كانت كل معصية بلا توبة خطوة، وكل كبر عن الحق خطوة، وكل ظلم أصروا عليه خطوة، حتى انتهى الطريق إلى الجهة التي كانوا يسرون نحوها وإن خدعوا أنفسهم طويلاً.

ثم تفاجئنا السورة بصنف ثالث لا يكتفي بالنجاة، بل يتقدم في مدارج القرب: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾. يتكرر اللفظ كأن الوصف بلغ من الاكتمال أنهم لا يحتاجون إلى تعريف بغير سبقهم؛ فهم السابقون الذين تحقق فيهم معنى السبق، وسبقوا إلى الله حين تباطأ الناس، وإلى الحق حين ترددوا، وإلى التضحية حين حسب الآخرون أثمانها، وإلى التوبة قبل أن تقسو القلوب، وإلى الطاعة قبل أن تنقضي الفرصة. لم يكونوا أسرع الناس حركة في الظاهر بالضرورة، بل كانوا أسرعهم استجابةً لله. إذا سمعوا النداء لم يقيموا بين أنفسهم وبينه متاهةً من الأعدار، وإذا عرفوا الخير لم ينتظروا أن يفعله الجميع، وإذا فتح لهم باب قرب لم يؤجلوه إلى زمن قد لا يأتي.

السبق في القرآن ليس تزامناً أنانياً يفرح فيه المرء بتأخر غيره، بل شوق إلى الله يجعل صاحبه خفيفاً من أثقال التردد. السابق لا يحتقر من ورائه، وإنما يفتح له الطريق، ولا يطلب المنزلة ليرى، بل لأنه وجد في قلبه جوعاً إلى رضا الله لا تشبعه المراتب الدنيا. قد يسبق إنسان بدمعة صادقة سبق بها أعمالاً كثيرة شابها العجب، وقد تسبق امرأة بصبر خفي لا يعرفه الناس، وقد يسبق فقير بدرهم أخرجه من حاجته، ويسبق عالم بكلمة حق حفظ بها معنى من معاني الوحي، ويسبق مجهول بدعوة في جوف الليل كانت عند الله أعظم من ضجيج مشهور ملاً الآفاق. فالمسافة إلى الله لا تقاس بخطوات الأقدام، بل بصدق القلوب، وقد يقطع الإخلاص في لحظة ما لا تقطعه صورة العمل في سنين.

﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾؛ وهذه هي الجائزة التي تنضال أمامها كل جائزة: القرب. لم يقل فقط إنهم ناجون أو منعمون، بل وصفهم بأنهم المقربون، وكأن نعيم الجنة كله محيط بالجوهرة الكبرى التي طلبوها: أن يكونوا قريبين من رضا ربهم وكرامته. والتقريب فعل من الله؛ فهم سعوا وصدقوا، لكنه سبحانه هو الذي اختارهم وقربهم، وفي هذا يجتمع الجهد بالمنة، والعمل بالفضل. لم يدخلوا مقام القرب بقوتهم المستقلة، فكل قوة فيهم منه، وكل توفيق هداهم إليه فضله، لكنهم استقبلوا العطاء بالاستجابة، ولم يبددوا فرص الهداية التي توالى عليهم.

ومن ذاق شيئاً من حلاوة القرب في الدنيا فهم لماذا كان أعظم نعيم الآخرة. قد تشابه أفعال الناس في الظاهر، لكن أحدهم يصلي ليتخلص من الواجب، والآخر يصلي لأنه وجد

في الوقوف بين يدي الله وطناً لقلبه؛ وأحدهم يقرأ القرآن ليبلغ نهاية الورد، والآخر يقرأه لأنه يسمع فيه خطاب ربه له؛ وأحدهم يترك الذنب خوفاً من الفضيحة، والآخر يتركه حياءً من نظر الله. هذه الفروق الخفية هي التي تصنع مراتب القرب. وليس القريب من الله من كثرت دعواه، بل من رقق قلبه للحق، وطهرت سريره، واستقامت جوارحه، وصار وجود الله في وعيه أعظم من وجود عيون الناس.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. جاء الجمع في ﴿جَنَّاتٍ﴾ ليفتح أفق التنوع والاتساع، وجاء ﴿النَّعِيمِ﴾ شاملاً لا يقصر الجنة على لذة واحدة. هناك نعيم الجسد الذي لا مرض فيه ولا تعب، ونعيم النفس التي لا تخاف زوال ما تحب، ونعيم القلب الذي تطهر من الحسد والحزن والقلق، ونعيم الصحبة التي لا غدر فيها ولا فراق، وفوق ذلك كله نعيم الرضا والقرب. إن نعيم الدنيا ناقص لأن الخوف يسكن إلى جواره؛ فإنا إن يحب الإنسان شيئاً حتى يخشى فقدته، وما إن يجتمع بمن يحب حتى يدخل الزمن بينهما منذراً بالافتراق، وما إن يقوى الجسد حتى تبدأ الشيخوخة عملها الصامت فيه. أما نعيم الجنة فليس مجرد مضاعفة للذات الدنيا، بل تحرير لها من شوائب النقص والزوال؛ فلا تخالطه مرارة، ولا يعقبه ندم، ولا يمر عليه موت.

قال الله تعالى:

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۖ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۖ عَلَىٰ سُرْرٍ مَوْضُونَةٍ ۖ مُتَكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾.

تخبر السورة عن السابقين أنهم ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۖ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾، فتوقظ في القلب إحساساً بأن القمم لا تزدهم كما تزدهم السفوح. فالنجاة بابها واسع برحمة الله، لكن السبق مقام يحتاج إلى صدق نادر، لأن أكثر النفوس تحب الخير بعد أن يصبح مألوفاً، وتؤثر الحق حين يقل ثمنه، وتسير مع النور حين تتكاثر حوله الجموع، أما السابق فيراه وهو محبوب عن أعين الكثيرين، ويدفع ثمن اختياره حين لا يحمل عنه الناس شيئاً. إن الأوائل من أتباع الرسل عاشوا لحظات التأسيس الثقيلة، فآمنوا حين كان الإيمان غربة، وبذلوا حين كان البذل اقتلاعاً للنفس من مألوفاها، وحملوا الرسائل وهي بذور مهددة في أرض قاسية، فاستحقوا من السبق بقدر ما حملوا من عبء البداية.

لكن وصف السابقين بالقلة ليس دعوة إلى اليأس، بل نداء إلى الهمة. فالقرآن حين يريك القمة لا يريد أن يقنعك بأنها ليست لك، وإنما يريد أن يوقظ فيك سؤال الصعود. وما دام العمر باقياً، فإن باب السبق مفتوح في كل خير لم تبدأ به، وفي كل توبة لم تؤجلها، وفي كل موقف يفر الناس من تكلفته. تستطيع أن تكون من السابقين إلى إصلاح قلبك، وإلى رد مظلمة، وإلى نصره حق، وإلى إغاثة ملهوف، وإلى مصالحة من خاصمتك نفسك، وإلى عبادة خفية لا يعلم بها إلا الله. ليس السبق زمناً تاريخياً مضى وحده، بل صفة روحية تتجدد كلما دعا الله عبداً إلى خير، فكان أول ما قام في قلبه: سمعنا وأطعنا.

ثم تقلنا السورة إلى مشهد الراحة بعد طول المجاهدة: ﴿عَلَىٰ سُرْرٍ مَوْضُونَةٍ ۖ مُتَكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾. السرر منسوجة محكمة مزينة، لكنها ليست مجرد أثاث فاخر، إنها رمز للطمأنينة التي بلغها من أتعاب أجسادهم وقلوبهم في سبيل الله. كم وقفوا في الدنيا حين نام الناس، وكم حملوا من هم الرسالة، وكم قاوموا شهوات النفس، وكم أخفوا ألهم حتى لا يضعفوا غيرهم، فإذا هم اليوم متكئون، وقد انتهى زمن التكليف والخوف. لم يكن تعبهم ضائعاً، بل كان كل ألم ينسج خيطاً في سرير الراحة الذي ينتظرهم، وكل صبر يبني جزءاً من النعم الذي لا يزول.

وهم ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾؛ فلا يعطي أحدهم ظهره للآخر، ولا يحجب بعضهم عن بعض جمال المجلس، وكأن الهيئة الخارجية تعبر عن صفاء ما في الصدور. في الدنيا تتباعد الوجوه وإن تقاربت الأجساد، وتحضر الحساسيات القديمة في المجالس، ويجلس الإنسان أحياناً قبالة أخيه

وقلبه مصروف عنه، أما الجنة فقد نُزع ما في الصدور من غل، فصار التقابل كمالاً في الأنس والمحبة. لا حسد على منزلة، ولا خوف من منافسة، ولا ذكرى جارحة تفسد صفو اللقاء؛ لأن الله لا يدخل عباده الجنة بأجساد منعمة وقلوب معذبة، بل يطهر باطنهم كما يكرم ظاهريهم، فيكون السلام من حولهم وفيهم.

قال الله تعالى:

﴿يُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانُ مُخَلَّدُونَ ﴿١٠﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١١﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ ﴿١٢﴾ وَفَاكِهَةً مِمَّا يَخْتَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَحْمَ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿١٤﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿١٥﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿١٦﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿١٨﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿١٩﴾﴾.

في الجنة لا يشيخ الجمال، ولا تهرم الخدمة، ولا يدخل الذبول على الوجوه؛ فالولدان مخلدون في الهيئة التي تسر الناظرين، يطوفون على أهل النعيم بأكواب وأباريق وكأس من معين. والمشهد ممتلئ بالحركة الهادئة والكرامة والرعاية، فلا عناء في طلب، ولا انتظار يقطع اللذة، ولا حاجة يشعر معها صاحبها بالمهانة. إن الله الذي رأى عباده وهم يصبرون على خشونة الطريق يحيطهم هناك بأسباب الراحة، حتى تصير أمنياتهم محمولة إليهم قبل أن يمسه تعب السعي إليها.

ولكن القرآن، وهو يذكر شراب الجنة، ينفي عنه آفات شراب الدنيا: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ﴾. وهنا يظهر الفرق بين لذة صنعها البشر منقوصة ولذة أعدها الله كاملة؛ ففي الدنيا تختلط الشهوة بعقوبتها، ويكون في أول الكأس طرب وفي آخرها صداع وذهاب عقل وندم، لأن لذات الدنيا تفتقر غالباً إلى النقاء، وتحمل في طياتها ضريبة تتجاوز الحد. أما شراب الجنة فتعة بلا أذى، ولذة بلا سلب للعقل، وفرح بلا خمار يعقبه وجع. وهذا يعلن أن الله لا يحرم عباده الطيبات تضييقاً عليهم، وإنما يحيمهم من لذة رخيصة امتزجت بالفساد، ويعدهم بلذة طاهرة لا تأخذ منهم كرامتهم لتنعهم لحظة من الوهم.

﴿وَفَاكِهَةً مِمَّا يَخْتَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَحْمَ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾. التخيّر والشهوة هنا مطهران من القلق والإفراط والعاقبة؛ فالإنسان يختار ولا يخشى نفاداً، ويشتهي ولا يخاف مرضاً، ويأكل ولا يطارده وجع ولا سمنة ولا ضعف. إن كثيراً من نعم الدنيا يحدها العجز من جانب والخوف من جانب، أما الجنة فهي دار يلتقي فيها تمام القدرة على التمتع بتمام النعمة. والقرآن يخاطب الإنسان بما يعرف من أسماء اللذات، لكنه يفتح وراء الأسماء حقيقة لا تدركها تجارب الأرض؛ ففاكهة الجنة ليست تكراراً مطابقاً لفاكهتنا، وإنما الاسم يقرب المعنى إلى الذهن، وتبقى الحقيقة مما لم تره عين ولم يخطر على قلب بشر.

ثم يكتمل جمال الصحبة والطهر: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿١٥﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾. واللؤلؤ المكنون مصون لم تمسه الأيدي ولم تختدش صفاءه العوارض، فجاء التشبيه ليجمع النقاء والبهاء والصيانة. وليس نعيم الجنة إثارة غليظة كما يتوهم من يقرأ الوعد الإلهي بعين شهوة الدنيا

المكدرة، بل هو جمال طاهر في عالم طاهر، تُزَع منه آفات الرغبة الأرضية من ابتذال وخيانة وغيره مؤلمة وزوال. كل ما في الجنة من لذة يمر عبر الطهارة، ولذلك لا تهبط اللذة بالإنسان، بل تكون جزءاً من كرامته.

﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. أعمالهم لم تكن ثمناً مساوياً لهذا النعيم غير المحدود، ففضل الله أعظم من أن يشتري بعمل محدود، لكنها كانت العلامة الصادقة على إيمانهم، والسبب الذي رتب الله عليه جزاءه برحمته. عملوا لأن الله وفقهم، وقبل منهم لأنه رحمهم، وضاعف لهم لأنه الكريم. وفي التعبير تكريم للعمل الإنساني أيضاً؛ فما فعلته في الدنيا لم يتبدد، والركعات التي ثقلت عليك، والدموع التي أخفيت، والحرام الذي تركته مع قدرتك عليه، والكلمة التي كتبتها كيلا تجرح قلباً، والحق الذي وقفت معه، كل ذلك يعبر معك، ويتحول بإذن الله من لحظات مضت إلى نعيم مقيم.

غير أن السورة، بعد أن عرضت الطعام والشراب والجمال، ختمت المشهد بنعمة قد تكون أعمق من ذلك كله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾. إننا لا ندرك مقدار ما نتعب أرواحنا منه الكلمات؛ كلمة باطلة تشوش العقل، وأخرى جارحة تنزف لها النفس، وغيبة تسمم المجلس، وجدال يبدد صفاء القلب، وخبر كاذب يملأ الصدر خوفاً، وتهمة تهدم عمراً من الكرامة. الدنيا صاخبة، والإنسان فيها محاصر بلغو كثير حتى يكاد الصمت نفسه يصبح أمنية. أما الجنة فطاهرة في أصواتها كما هي مطهرة في أنهارها، لا يدخل إلى السمع فيها ما يؤذي القلب، ولا تُقال كلمة تستدعي الإثم أو الدفاع أو الاعتذار.

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾؛ السلام هو المناخ الذي يتنفسه أهل الجنة، يتلقونه من رب رحيم، ومن ملائكة كرام، ويقولوه بعضهم لبعض، حتى لا يبقى في الوجود المحيط بهم منفذ للخوف. وتكرار ﴿سَلَامًا﴾ يجعل الكلمة كأنها تتردد في الأرجاء، موجةً بعد موجة؛ سلام على القلوب من الحزن، وعلى الأجساد من المرض، وعلى الصحة من الفراق، وعلى النعمة من الزوال، وعلى الذاكرة من الألم، وعلى المستقبل من المفاجآت الموجهة. هنالك يفهم الإنسان أن السلام لم يكن كلمة تحية فحسب، بل كان اسماً للحياة التي ظل يبحث عنها بين أشياء الدنيا المتكسرة، ولم يجدها كاملة إلا في دار السلام.

قال الله تعالى:

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿١﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٣﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٤﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٥﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٦﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٧﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٨﴾﴾

يعود الاستفهام التعظيمي: ﴿مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾، ليجعل القلب متطلعاً إلى منزلتهم قبل تفصيلها. وإذا كان السابقون في مقام القرب الخاص، فإن أصحاب اليمين في سعة الكرامة والرضوان، وقد فتح الله لهم أبواب نعيم يداوي كل ما عرفوه في الأرض من تعب وحرمان. والمشاهد هنا خضراء رطبة وادعة، كأن السورة تنقل النفس من رجّ الأرض وبس الجبال إلى عالم استقر فيه كل جميل، فلا اضطراب ولا خوف ولا جذب.

﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾؛ والسدر معروف بشوكه، فإذا هو في الجنة مخضود قد نزع شوكه وبقي حسنه وثمره وظله. وكأن في الصورة قاعدة من قواعد النعيم الأخروي: بقاء الجمال بعد نزع الأذى. فما من خير في الدنيا إلا وتخالطه شوائبها؛ الحبة معها خوف الفقد، والنجاح معه تعب الحراسة، والصحة معها توقع المرض، والثمرة قد يحرسها الشوك. وفي الجنة يُنتزع الشوك من كل شيء، لا من السدر وحده؛ يُنتزع شوك العلاقات، وشوك الذكريات، وشوك الترقب، وشوك النقص، ويبقى الجوهر الجميل بلا ألم يجاوره.

﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾؛ ثمر متراكب منظم، لا مشقة في بلوغه ولا قلة في عطائه، ثم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ لا تقطعه شمس محرقة ولا يحوله دوران الوقت إلى رقعة تنقلص. وكم يحتاج الإنسان إلى الظل بمعناه الحسي والروحي؛ إلى مكان لا تطارده فيه قسوة العالم، ولا يظل واقفاً تحت شمس القلق. لقد عاش المؤمن في الدنيا يحمل هم النجاة، ويقاوم فتن الطريق، ويتلقى حرّ الابتلاء، فإذا به في ظل ممدود، كأن الرحمة قد اتسعت حوله حتى لم يعد للخوف طرف يصل إليه.

﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾؛ ماء جارٍ مصبوب في يسر ووفرة، لا يحتاج إلى حفر بئر، ولا قطع مسافة، ولا خوف من جفاف أو تلوث. ومن عرف قيمة الماء في الأرض القاحلة أدرك ما في المشهد من رخاء، لكن الدلالة تتجاوز ري الجسد إلى معنى الحياة كلها؛ فالماء هو السر الذي جعل الله منه كل شيء حي، وها هو في الجنة يجري شاهداً على حياة لا يهددها الموت. لقد كان الإنسان في الدنيا يشرب ليؤجل عطشه، أما هناك فيشرب متلذذاً في دار لا خوف فيها من هلاك.

﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۖ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾. إنها كثيرة في أنواعها ومقاديرها، مستمرة لا يقطعها فصل، وقريبة لا يمنعها ثمن ولا حارس ولا عجز. وفي الدنيا قد يرغب الإنسان في شيء ثم يُمنع منه بفقره، أو بمرضه، أو ببعده، أو بانقضاء موسمه؛ أما الجنة فتنتهي فيها سلطة «لا تستطيع» التي رافقته طويلاً. لا مقطوعة في الزمن، ولا ممنوعة في الوصول، لأن كرم الله هناك لا تحكمه قوانين الندرة التي عرفها البشر، ولا يحتاج أحد أن يحرم غيره كي يكثر نصيبه؛ فالخزائن خزائن من لا تنفذ خزائنه.

﴿وَفُرْشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾؛ مرفوعة القدر والمكان، كاملة النعمية والكرامة، تليق بمن رفعهم الإيمان بعد أن تواضعوا لله. وهذه الرفعة تردنا إلى أول السورة: ﴿خَافِضَةً رَافِعَةٍ﴾؛ فهؤلاء هم الذين رفعتهم الواقعة، لا لأنهم طلبوا العلو في الأرض، بل لأنهم خفضوا جناحهم للحق. من تواضع لله رفعه، ومن جعل همه أن يرتفع فوق الخلق قد يلتقى يوماً تنقلب فيه رفعته انخفاضاً. الجنة ليست مكافأة منفصلة عن أخلاق أهلها، بل هي الإظهار الكامل لما صنعه الإيمان فيهم؛ رفعوا الحق في الدنيا، فرفعهم الله في الآخرة، وفرشوا الرحمة للخلق، فاستقبلتهم فرش الكرامة، وآثروا ما عند الله، فأعطاهم ما لا ينقطع ولا يُمنع.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً ۖ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۖ عُرُبًا أَتْرَابًا ۖ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ۖ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ۖ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۚ﴾.

يتصل الحديث بالفرش المرفوعة، ثم يكشف عن نشأة جديدة لا تخضع لقوانين النقص التي خضعت لها الأجساد في الدنيا: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً﴾. والتعبير لا يقف عند استعادة صورة كانت ثم بليت، بل يفتح معنى الخلق الكامل المتجدد، ذلك الخلق الذي يتناسب مع دار البقاء، فلا يمر عليه ضعف العمر، ولا تعب السنين، ولا ما تتركه الآلام في الوجوه والأرواح من آثار. إن الذي أنشأ الإنسان أول مرة من تراب، ثم نقله في أطوار لا يملك منها شيئاً، قادر على أن ينشئه نشأة أخرى تبلغ من الكمال ما لا يستطيع خيال الدنيا أن يرسمه. وليس البعث ترميماً لجسد قديم على طريقة البشر حين يصلحون ما تهدم، بل هو إنشاء بأمر من إذا أراد شيئاً قال له: كن، فيكون.

وفي قوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ حضور ظاهر للقدرة الإلهية؛ فالجمال هنا ليس صناعة مساحيق، ولا ثمرة حيلة تقاوم الزمن قليلاً ثم يغلبها، وإنما هو إنشاء رباني خالص. وفي الدنيا يطارد الإنسان الشباب، ويخشى الخطوط التي يرسمها العمر في وجهه، ويحاول أن يؤخر انحناء الجسد وذبول النضارة، لكنه مهما فعل لا يستطيع أن يوقف حركة الزمن؛ لأن الجسد الدنيوي خلق لمرحلة مؤقتة، يحمل في بنيته علامات فئائه. أما أجساد الجنة فقد أُنشئت للبقاء، ولذلك لا تكون صحتها هدنة مؤقتة مع المرض، ولا يكون شبابها مسافة قصيرة بين طفولة وشيخوخة، بل هيئة مستقرة لا تتأكل؛ لأن الدار نفسها لا يدخلها الموت.

﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۖ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾؛ تتجدد فيهن البكارة والنضارة، ويجتمع الجمال الظاهر بحسن التبعيل ولطف المودة وتمام الأنس، فـ﴿عُرُبًا﴾ تحمل معنى التجبب إلى الأزواج، وحسن الكلام، وصفاء المعاشرة، وشدة المحبة. والجنة لا تقدم للإنسان صورة جميلة خاوية من الروح، بل تقدم له الأنس الكامل الذي يلتقي فيه جمال الهيئة بجمال العاطفة. وكَم من صورة حسنة في الدنيا يفسدها جفاء القلب، وكَم من علاقة بدأت بالانجذاب ثم أكلتها الأنانية وسوء العشرة وفقر المودة؛ لأن البشر يدخلون علاقاتهم بنفوس لم تكتمل، ويحمل كل واحد منهم تاريخاً من الخوف والجرح والتوقعات المتعارضة. أما في الجنة فقد طهرت النفوس، وصار الحب نفسه جزءاً من النعيم، لا باباً إلى التملك والقلق والخصومة.

﴿أَتْرَابًا﴾؛ متساويات في السن، متقاربات في الشباب، فلا جفوة تُفسد التناغم، ولا مرور للزمن يجعل طرفاً يذبل والآخر ينظر إليه بعين الأسى. إن التساوي هنا لمسة من تمام

الانسجام، فالنعيم لا يُعطى مبتوراً، ولا تُترك فيه شائبة صغيرة تعكر صفوه. وما يعده الإنسان في الدنيا تفاصيل جانبية يدخل في علم الله ورحمته؛ فالذي خلق النفس يعرف ما يطمئنها، والذي أودع فيها الحاجات يعرف كيف يشبعها دون نقص أو ابتذال. ولهذا لا ينبغي أن نقرأ أوصاف الجنة بعين مادية ضيقة، كأنها قائمة من الملذات المنفصلة، بل نقرأها بوصفها عالم الاكتمال الذي تتآلف فيه النعم، فلا تعطي نعمة من جانب ثم يفسدها نقص من جانب آخر.

﴿لَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾؛ أولئك الذين حملوا في الدنيا أمانة الإيمان، وصانوا جوارحهم عن الحرام، وجاهدوا شهواتهم حين كانت المعصية قريبة والطاعة تحتاج إلى صبر. إن من ترك شيئاً لله لم يضع ما تركه، بل أودعه عند الكريم، ومن أغلق نافذة الحرام في وجه نفسه لم يحكم عليها بالحرمان، وإنما اختار أن ينتظر العطاء الطاهر الذي لا تعقبه وحشة. وهذا من أعمق ما يصلح به القرآن مفهوم الزهد: فالزهد ليس كراهية الجمال ولا محاربة الفطرة، بل رفض أن ينال الجميل بطريق قبيح، وثقة بأن الله لا يضيع شهوة ضُبطت بأمره، ولا لذة تُركت حياءً منه، ولا صبراً تحمل مرارته قلب يطلب رضاه.

ثم تقول السورة في أصحاب اليمين: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۖ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾. وهنا تسع دائرة الرجاء؛ فإذا كان السابقون قلة في الآخِرِينَ، فإن أصحاب اليمين جماعات كثيرة من الأولين والآخِرِينَ. إن رحمة الله لا تضيق لعباده، وباب النجاة ليس مراً لا يتسع إلا للنادرين، بل هو طريق مفتوح لمن صدق الإيمان، وأدى ما استطاع، وعاد كلما زل، ولم يصر على محاربة الحق. في الأمة وفي سائر أتباع الرسل الصادقين على امتداد التاريخ ثلل كثيرة لم تبلغ مقام السابقين، لكنها لم تُحرم كرامة اليمين؛ وهذا يوازن في القلب بين الطموح والخوف والرجاء: نطمح أن نسبق، ونخاف أن نتخلف، ونرجو ألا نخرجنا عثرات الطريق من سعة رحمة الله.

ولا ينبغي لمن رأى تقصيره أن يقول: فاتتني منازل السابقين فلا جدوى من السير؛ فإن الشيطان قد يحوّل علو المقام إلى ذريعة لتترك الطريق كله. إن لم تستطع أن تكون في أول الصف فلا تخرج من الصف، وإن ثقل عليك النفل فلا تضيع الفرض، وإن لم تبلغ كمال الخشوع فلا تترك الصلاة، وإن لم تصبح من كبار المحسنين فلا تكف يدك عن الإحسان القليل. الطريق إلى الله لا يُقطع بقفزة واحدة، وإنما بخطوات صادقة، ورب خطوة صغيرة عظمها الإخلاص حتى سبقت أعمالاً كبيرة. والسورة تعرض المقامات كي تحركك، لا كي تحطّمك، وتريك كثرة أصحاب اليمين كي تعرف أن النجاة ليست حكرًا على من لم يخطئوا، بل فضل يفتح بابه للتائبين والمجاهدين والمتمسكين بحبل الله إلى آخر الطريق.

قال الله تعالى:

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿١٠﴾ فِي سُمْومٍ وَحَمِيمٍ ﴿١١﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿١٢﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾.

بعد الظلال الممدودة والماء المسكوب والفاكهة التي لا تنقطع، تنقلب الصورة انقلاباً موحجاً: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾. وكما فتح الاستفهام في أصحاب اليمين باب التعظيم، فإنه هنا يفتح باب التهويل؛ أي حال هذه التي انتهوا إليها، وأي خسارة استطاعت أن تنقل الإنسان من إمكان الجنة إلى هذا المصير؟ لقد كان الطريقان معروضين عليه، وكانت الآيات تطرق سمعه، وكانت الفطرة تتحرك في أعماقه، وكانت أبواب التوبة تُفتح له صباحاً ومساءً، لكنه ظل يؤجل، أو يستكبر، أو يستبدل نداء الله بنداء شهوته، حتى صار التأجيل اختياراً، والغفلة عادة، والعادة هوية، والهوية مصيراً.

﴿فِي سُمْومٍ وَحَمِيمٍ﴾؛ والسُموم ربح شديدة الحرارة تنفذ في المسام، فلا تترك للجسد منفذاً يستريح فيه، والحميم ماء بلغ الغاية في الحرارة. إنهم محاصرون بالحر من جهة الهواء ومن جهة الماء؛ فالشيء الذي يُطلب منه التبريد صار مصدراً آخر للعذاب، وما كان في الدنيا سبب حياة صار هناك - بما كسبوا - صورة من صور العقوبة. وفي هذا الحصار يتجلى الانقلاب الكامل للنعمة؛ فن لم يعرف المنعم في الماء والهواء، واستعمل ما أُعطيه في الإعراض، يلقي عالماً لا تؤدي فيه الأشياء له الوظائف التي أحبها. وليس ذلك ظلماً، بل ظهور للعدل بعد زمن طويل من الإهمال؛ فقد عاش بنعم الله، وتنفس هواءه، وشرب ماءه، وأكل رزقه، ثم اتخذ هذه النعم أدوات لمبارزته بالعصيان، وكأن النعمة كانت حقاً ذاتياً لا منحة تستوجب الشكر.

﴿وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ﴾؛ يبحث الإنسان بفطرته عن الظل حين يشتد الحر، فيجد ظلاً من دخان أسود شديد، لا يحجبه عن الألم ولا يمنحه راحة. إنه يشبه النجاة في صورته، لكنه لا يحمل شيئاً من حقيقتها، كما كانت الأوهام التي لجؤوا إليها في الدنيا تشبه الأمان ولا تمنحه. لجؤوا إلى المال ليدفع عنهم الخوف، فإذا المال يتركهم عند الموت، ولجؤوا إلى الجاه لينع عنهم الانكسار، فإذا الجاه لا يستطيع أن يدفع عنهم مرضاً ولا قدراً، ولجؤوا إلى الشهوات ليهربوا من فراغ أرواحهم، فإذا اللذة العابرة توسع الفراغ بعد انطفائها. كان لهم في الدنيا ظلال من يحوم معنوية؛ أشياء احتموا بها من سؤال المصير، لكنها لم تكن باردة ولا كريمة، بل أخرت المواجهة حتى جاء وقت لا يمكن فيه الهرب.

﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾؛ ينفي القرآن عن ذلك الظل منفعة الحس وكرامة النفس. فليس بارداً يخفف حرارة العذاب، ولا كريماً حسن المنظر والمقام. ومن عظمة التعبير أنه يقرر أن الراحة لا تكتمل بمجرد دفع الألم، بل تحتاج أيضاً إلى الكرامة؛ فالإنسان لا يريد مأوى يحمي جسده ويهين روحه، وإنما يطلب الأمن الذي تصان فيه إنسانيته. وقد عاش أهل الإيمان في الدنيا بين الخوف والرجاء، وضبطوا نفوسهم بحدود الله، فصار لهم ظل كريم؛ أما أهل الشمال فطلبوا التحرر من كل قيد، حتى استعبدوا أنفسهم للشهوة، ثم انتهوا إلى موضع انتزعت منه الراحة والكرامة معاً.

ولا يذكر القرآن النار ليشيع في النفس شهوة الانتقام، ولا ليجعل المؤمن ينظر إلى الخلق بعين السمات، بل ليوقظ الرحمة والخوف والمسؤولية. فنقرأ العذاب ثم تكبر على الناس لم يفهمه، ومن تلا أوصاف النار ثم أمن على نفسه فقد جهل تقلب القلوب، ومن عرف هذا المصير ثم لم يرحم الغافلين بالصيحة والدعاء والعمل الصالح لم يدرك ثقل الحقيقة التي يحملها. إن المؤمن يقف أمام آيات الوعيد مرتجفاً على نفسه، حزينا على من ضل، مستعيذاً بربه من النار، عارفاً أنه لا ينجو بذكائه ولا بنسبه ولا بكثرة حديثه عن الدين، وإنما ينجو بفضل الله ثم بإيمان صادق يصدق العمل.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ۖ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ۚ وَكَانُوا يَقُولُونَ إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۖ أَوَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۚ﴾.

لا تكنفي السورة بوصف العاقبة، بل تعود بنا إلى جذورها النفسية: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾. والترف هنا ليس مجرد امتلاك النعمة، فالمال في ذاته ليس جريمة، والطيبات لم تُخلق ليُحرم منها المؤمنون، وإنما الترف المذموم حالة تستولي فيها النعمة على القلب حتى تفسد حساسيته الأخلاقية، ويصبح الإنسان أسيراً لراحته، عاجزاً عن سماع حقيقة تهدد امتيازاته. إنه لا يشكر النعمة بل يذوب فيها، ولا يراها أمانة بل يتخذها دليلاً على استحقاقه المطلق، ثم يقيس الحق بمقدار ما يحفظ له رخاءه. فإذا دعاه الوحي إلى التضحية بنفر، وإذا ذكره بحق الفقير ضاق، وإذا طلب منه أن يراجع مصدر قوته بحث عن تأويل يريحه؛ لأن الترف لا يريد ديناً يوقظه، بل يريد خطاباً يطمئنه وهو باقٍ في موضعه.

وما أخطر أن تتحول الراحة من نعمة يستخدمها الإنسان إلى عقيدة يقيس بها الأشياء؛ فيظن أن كل ما يؤلمه باطل، وأن كل ما يحرمه لذة ظلم، وأن واجب العالم أن يحافظ على مزاجه. عندئذ يضعف عن حمل تكاليف الحق؛ فالحق قد يطالبه أن يقول: «لا» حين تكون «نعم» أكثر ربحاً، وأن يخاز إلى ضعيف لا يملك مكافأته، وأن يخسر موقعاً لثلاث يخسر نفسه، وأن يغادر عادة أحبها لأنها لا ترضي الله. والمترف روحياً لا يستطيع ذلك؛ ليس لأنه يفتقد المعلومات، بل لأن شهوته صنعت حول قلبه جهازاً كاملاً لتبرير ما يريد.

والقرآن لا يدعو إلى تقديس الفقر ولا إلى إهمال عمران الحياة، لكنه يحذر من عبودية النعمة. فقد يكون الفقير مترف القلب إذا صار أسيراً لما يمتنى، وقد يكون الغني زاهداً إذا كانت الدنيا في يده ولم تستولِ على ضميره. المعيار ليس مقدار ما تملك، بل مقدار ما يملكك ما تملك. هل تستطيع أن تقدم أمر الله حين يتعارض مع مصلحتك؟ هل تستطيع أن تنفق مما تحب؟ هل تقبل النصيحة من هو دونك مكانة؟ هل ترى النعمة فضلاً يستدعي الشكر، أم امتيازاً يبيح لك الاستعلاء؟ هناك ينكشف الفرق بين مال يخدم رسالتك ومال يعيد تشكيل رسالتك كي تخدمه.

ثم تقول السورة: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾. لم تكن قضيتهم أنهم أخطؤوا، فالإنسان خاطئ، وأبواب الرحمة مفتوحة لمن عاد؛ وإنما كانت قضيتهم الإصرار. والخطيئة التي يعقبا ندم قد تكون باباً إلى انكسار يقرب العبد، أما الخطيئة التي يتبعها تبرير ثم إصرار فإنها تبدأ في تغيير بنية القلب. في المرة الأولى يتألم الضمير، وفي الثانية يضعف ألمه، وفي الثالثة

يبحث العقل عن حجة، ثم يأتي وقت لا يعود فيه الإنسان يرى الذنب ذنباً، بل يراه حقاً شخصياً، ويغضب ممن يذكره بالله أكثر مما غضب من نفسه حين عصت.

الإصرار ليس تكرار الفعل وحده؛ فقد يكرر الإنسان الذنب وهو يكرهه ويجاهد نفسه ويتوب كلها سقط، وهذا لا يساويه بمن عقد قلبه على المصالحة مع المعصية. الإصرار موقف باطني يرفض الرجوع، ويحول الذنب من عثرة إلى طريق. ولهذا كان أخطر من الذنب المفرد، لأنه يغلق الباب من الداخل، فالله يدعو، والآيات تُبلى، والمواعظ تمر، والموت يقترب، لكن النفس تقول: ليس الآن، أو لا أريد، أو لن أغير شيئاً. ومع كل تأجيل يتصلب القيد حتى يتوهم صاحبه أنه جزء من طبيعته لا يمكن فكّه.

وسُمي ﴿الْحَنْثِ الْعَظِيمِ﴾ لما فيه من نقض للعهد مع الله، ويدخل في قلبه الشرك والتكذيب وما يتفرع عنهما من عظيم الآثام. لقد أخذ الله على الفطرة عهد المعرفة والخضوع، وأرسل الرسل، وأنزل الآيات، وساق إلى الإنسان من دلائل الربوبية ما يملأ نفسه والآفاق، ثم أصر على أن يعيش خارج هذا العهد. وأعظم الحنث أن يمتنحك الله وجودك ثم تنسب سلطان حياتك إلى غيره، وأن يفتح لك أبواب المعرفة ثم تجعل عقلك خصماً للوحي، وأن يمدك بالنعم ثم تستخدمها في صد الناس عن سبيله.

ومن الإصرار العملي ولد التكذيب الفكري: ﴿وَكَاُنُوا يَقُولُونَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أَوَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ. لم يكن إنكار البعث دائماً نتيجة برهان قادهم إليه عقل محايد، بل كثيراً ما كان حاجة نفسية لحماية نمط الحياة الذي اختاروه؛ لأن الاعتراف بالبعث يعني الاعتراف بالحساب، والاعتراف بالحساب يعني أن أفعالهم ليست بلا عاقبة. لذلك وقفوا عند صورة التراب والعظام، واستبعدوا أن تعود الحياة بعد تفرق الأجزاء، كأن الذي خلقها أول مرة عاجز عن أن يعيدها، وكأن القدرة الإلهية تُقاس بما تستطيعه أيدي البشر.

إنهم ينظرون إلى التراب ويرون النهاية، أما المؤمن فينظر إليه ويرى مادة البداية أيضاً. ألم يُخلق الإنسان أول مرة من عناصر هذه الأرض؟ ألم يخرج النبات الحي من تربة تبدو ساكنة؟ ألم تكن أجساد الآباء أنفسهم من طعام خرج من الأرض، ثم صار دماً ولحماً وعصباً ووعياً؟ إن الاستبعاد ينشأ حين يرى الإنسان المرحلة الأخيرة منفصلة عن القدرة التي صنعت المرحلة الأولى. ولو تذكر البداية لما استعظم الإعادة؛ فالذي أوجد من عدم لا يعجزه أن يجمع ما تفرق، والذي حفظ تفاصيل كل إنسان وهو ينمو من خلية دقيقة لا تضيق عنده ذرة من جسده حين يصير تراباً.

وسؤالهم: ﴿أَوَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ يحمل مزيداً من الاستبعاد؛ فكأن طول الزمن يجعل الميت أبعد عن سلطان الله، وكأن مرور القرون يحو المعرفة من علمه. وهذا قياس للخالق على المخلوق؛ فالإنسان ينسى ما ابتعد زمانه، وتضيع من خزائنه الملفات القديمة، أما علم الله فلا يقرب منه

جديد ولا يبعد عنه قديم، ولا يحتاج إلى ذاكرة تستعيد ما غاب، لأن الأشياء كلها حاضرة في علمه قبل وجودها وبعد فنائها. ليست إعادة الأولين أصعب من إعادة الآخرين، وليس خلق الملايين أشق عليه من خلق فرد واحد؛ فالمشقة من خصائص القدرة المحدودة، أما أمر الله فإذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن، فيكون.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

يأتي الجواب حاسماً، لا يطيل الجدل مع الاستبعاد، بل ينقلهم إلى الحقيقة التي سينتهون إليها: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾. كل الذين مروا فوق الأرض منذ بدء الخلق، وكل الذين سيأتون حتى آخر مولود، وكل من نسبهم التاريخ أو حفظ أسماءهم، وكل من مات في بحر أو احترق في نار أو تفرقت أجزاؤه في التراب، سيجمعون. إن التاريخ البشري الذي يبدو لنا نهراً متقطعاً من الأجيال هو في علم الله جماعة واحدة تسير إلى موعد واحد، وما الموت إلا انتقال مؤقت من مشهد الدنيا إلى انتظار البعث.

﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾؛ واللام مع التوكيد تسحق الوهم الذي احتموا به. ليس الجمع احتمالاً، وليس وعداً رمزياً، بل حقيقة مقررة. في الدنيا لا يستطيع ملك أن يجمع كل أهل مدينته في ساعة، ولا تعرف دولة عدد من مروا على أرضها عبر القرون، أما الله فيجمع الأولين والآخرين دون أن يغيب وجهه، أو يضع اسم، أو يختلط إنسان بإنسان. كل فرد سيأتي بذاته وخصوصيته وصحيفته وذاكته ومسؤوليته؛ فالجموع الهائلة لا تذيب الفرد في رقم، وعلم الله المحيط لا تشغله الكثرة عن الواحد.

﴿إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾. للقيامة ميقات، فلا تأتي اضطراباً خارج التدبير، ولا تقع مصادفة في حركة الكون، بل لها موعد معلوم عند الله، مضبوط لا يتقدم ولا يتأخر. نحن نجهله لحكمة؛ لأن إخفائه يجعل العمر كله ميدان استعداد، كما أخفي عن كل نفس أجلها الخاص، لكن جهلنا بالموعد لا يعني غيابه عن العلم الإلهي. والإنسان الغافل يتعامل مع المجهول كأنه غير موجود، مع أن أكثر الحقائق المؤثرة في حياته مجهولة التوقيت: لا يعرف متى يموت، ولا أين، ولا كيف، ومع ذلك يسير الأجل إليه بيقين. فليس السؤال الحكيم: متى تقع الواقعة؟ بل: ماذا أعددت إذا وقعت؟

وفي اجتماع الأولين والآخرين انهيار لوهم الإفلات. قد يظن الظالم أن تقادم الزمن دفن جريمته، وأن موت الشهود أغلق الملف، وأن تغيير الرواية محا الحقيقة، لكن الميقات سيجمعه بمن ظلم، وسيقم الشهادة من جوارحه ومن الأرض ومن العلم الذي لا يغيب عنه شيء. وقد يظن المظلوم أن حقه تاه لأنه لم يجد في الدنيا قاضياً منصفاً، فتأتي هذه الآية لتقول له: إن القضية لم تغلق، بل نقلت إلى يوم لا تضيع فيه الحقوق، ولا تُستري الأحكام، ولا يملك القوي أن يرهب الشاهد. إن الإيمان بالجمع ليس فكرة عن المستقبل فحسب، بل قوة أخلاقية

تعيد إلى الحاضر توازنه؛ تمنعك من الظلم ولو استطعت، وتمنحك الصبر إذا وقع عليك الظلم ولم
تستطع دفعه.

قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۖ لَا كَلِمَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ۖ فَالْتَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۖ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۖ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَلِيمِ ۖ هَذَا نَزَلْنَاهُ يَوْمَ الدِّينِ ۖ﴾

بعد الجمع تبدأ المواجهة المباشرة: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾. يجمع الوصف بين الضلال والتكذيب؛ ضلوا عن الطريق، ثم كذبوا بالعلامات التي كانت تستطيع ردهم إليه. وقد يضل الإنسان لجهل عارض، فإذا جاءه البيان رجع، أما هؤلاء فاقترن ضلالهم برفض الحقيقة، ولذلك تحول الضلال من حالة يمكن علاجها إلى موقف يدافع عن نفسه. إن أخطر مراحل الباطل حين لا يكنفي صاحبه بأن يسلكه، بل يعيد تعريفه ليصبح حقاً، ثم يكذب كل صوت يوقظه، فيغلق على نفسه منافذ النجاة واحدة بعد أخرى.

﴿لَا كَلِمَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ﴾. يقابل القرآن بين فاكهة أهل الجنة وشجرة أهل النار، هناك فاكهة مما يختيرون، وهنا زقوم لا يشتى ولا يختار، لكنه يصبح طعام الضرورة في الحميم. والشجرة في الوعي الإنساني رمز للحياة والظل والثمر، فإذا بها هنا تنبت في أصل الحميم وتحمل ثمرة العذاب. وكأن ما أفسده الإنسان في علاقته بالوجود يعود إليه مفسداً؛ فقد منح شجر الدنيا رزقاً وجمالاً، لكنه لم ير فيه آية المنعم، فاستعمل الرزق في العصيان، حتى استبدلت له بالثمرة الطيبة ثمرة تناسب ما زرعه في قلبه من كفر.

﴿فَالْتَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾. لا يقفون عند لقيمات، بل يملأون البطون، لا للذة وإنما تحت ضغط الجوع والعذاب. وما أشد الفرق بين امتلاء أهل الجنة بالرضا وامتلاء هؤلاء بالزقوم! في الدنيا ملؤوا بطنهم من الشهوات دون أن يسألوا عن حلالها وحرامها، ولم يعرفوا حد الكفاية، وكلما نالوا شيئاً طلبوا أكثر، حتى صارت الرغبة بئراً لا يمتلئ. وهنا تنقلب صورة الجوع الذي لم يضبطوه؛ يأكلون حتى الامتلاء، لكن الامتلاء لا يمنحهم شعياً ولا راحة، لأن المشكلة لم تكن يوماً في قلة ما يملكون، بل في فساد ما يريدون.

ثم يطلبون الماء بعد الزقوم: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾. لكن الحميم لا يطفئ ناراً، بل يزيد، ولا يعالج أثر الطعام، بل يضيف عذاباً إلى عذاب. وهكذا كل علاج يطلب بعيداً عن الله لمشكلة صنعها البعد عنه؛ قد يهرب الإنسان من ضيق المعصية إلى معصية أخرى، ومن وحشة الشهوة إلى شهوة أشد، ومن فراغ القلب إلى مزيد من الاستهلاك، فيكون دواؤه امتداداً لدائه. إنه يشعر بالعطش الروحي، لكنه يشرب من ماء مالح، وكلما شرب ازداد ظمأً؛ لأن القلب لا يرويه إلا ما خلق له من معرفة الله ومحبته والأنس به.

﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَمِيمِ﴾؛ والهميم الإبل العطاش التي أصابها داء فلا ترتوي مهما شربت، أو هي العطاش الشديدة الظمأ. إنهم يشربون بشراهة المضطر، لكن الارتواء لا يأتي. وهذه صورة مرعبة للشهوة حين تنفصل عن الهداية: عطش يتغذى بما يشرب، ورغبة تكبر بما تنال، وحاجة لا تصل إلى السكينة. ومن تأمل أحوال الناس رأى ظلال هذا المشهد في الدنيا؛ من يظن أن مزيداً من المال سيخفي خوفه، فإذا زاده المال خوفاً على المال، ومن يطلب الاعتراف من عيون الناس، فإذا اتسعت شهرته صار أكثر فزاعاً من أفلها، ومن يطارد اللذة حتى تفقد الأشياء قدرتها على إسعاده. الهميم ليست صورة للشرب في النار وحده، بل إنذار من أن يتحول القلب في الدنيا إلى كائن لا يعرف الارتواء لأنه يشرب من غير منبعه.

ثم تأتي المفارقة الساخرة الموجهة: ﴿هَذَا نَزَلُكُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾. النزل هو ما يُهَيَأ للضيف عند قدومه إكراماً له، لكن ما أعد لهم هنا زقوم وحميم؛ لأنهم لم يأتوا دار كرامة، بل أتوا إلى الجزاء الذي صنعوا أسبابه. لقد كان لهم في الدنيا نزل من النعم كل يوم؛ شمس تشرق، وماء ينزل، وأرض تنبت، وأجساد تعمل، وعقول تدرك، ورحمة تمهلهم، فلم يشكروا المضيف ولم يحفظوا حرمة الدار. حتى إذا انتهت ضيافة الامتحان وصلوا إلى نزل الجزاء. وما أبلغ التعبير في كشف انقلاب المصير: من لم يعرف كرم الله الذي دعاه إليه طوعاً، عرف عدله حين صار الرجوع مستحيلاً.

غير أن الآية لا تريد من القارئ أن يقف بعيداً يتأمل مصير غيره، بل أن يسأل نفسه: ما النزل الذي أهبطه الآن لقدومي؟ كل يوم من العمر يرسل شيئاً إلى الأمام؛ صلاة خاشعة، أو مظلمة لم تُرد، أو صدقة نُسييت في الأرض ولم تُنس في السماء، أو كلمة جرحت قلباً، أو توبة غسلت أثراً، أو ذنب أصر عليه. نحن لا نسير إلى مستقبل فارغ، بل إلى مستقبل بنينه بأعمالنا تحت سلطان مشيئة الله ورحمته. وما نفعه اليوم قد يبدو عابراً لأنه اختفى من حواسنا، لكنه لم يختف من صحيفة المصير.

قال الله تعالى:

﴿لَنَحْنُ خَلْقَنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ ۖ ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ ۖ ﴿أَلَمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ .

بعد أن عرضت السورة مشاهد البعث والجزاء، عادت بالإنسان إلى نفسه، إلى بداية قريته منه لا يستطيع إنكارها: ﴿لَنَحْنُ خَلْقَنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ . لم يقل: نحن سنخلقكم، بل واجههم بالفعل الذي وقع فيهم وصار وجودهم شاهداً عليه. أنت الذي تجادل في الإعادة دليل قائم على القدرة التي تنكرها؛ فقبل أن تكون مكذباً كنت معدوماً، ثم وجدت، وقبل أن تسأل: كيف يحيي الله العظام؟ كنت أنت نطفة لا عظام فيها ولا عقل ولا لسان يسأل. وجودك ليس أرضاً محايدة تقف عليها لتحاكم خبر الخالق، بل هو أول برهان على صدق خبره.

﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾؛ ما الذي يمنعكم من التصديق وقد حملتم الدليل في أجسادكم؟ إن قضية البعث لا تحتاج إلى أن يسافر الإنسان بعيداً في الآفاق قبل أن ينظر في ذاته؛ فكل خلية فيه قصة خلق، وكل نبضة تجري بغير أمره شهادة، وكل طور مر به كان تحولاً لا يملكه. لقد خرج من عالم لا يذكره، ونما في رحم لم يديره، واكتملت أعضاؤه وفق هندسة لم يرسمها، ثم جاء إلى الدنيا فوجد آلة الوعي جاهزة لاستقبال العالم. فكيف يتحول هذا كله في نظره إلى حدث عادي، ثم تصبح الإعادة هي الأمر المستغرب؟

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ . تهبط السورة بالإنسان من ادعاءاته الكبرى إلى قطرة مهينة تبدأ منها حكايته. والقرآن لا يذكر البداية ليحقر الإنسان بمعنى إلغاء كرامته، بل ليحطم الكبر الذي يحجبه عن ربه؛ فمن عرف أصل جسده تواضع، ومن رأى كيف حُمِلَ في بطن أمه عاجزاً لم يتأله على الناس، ومن أدرك أن بدايته قطرة ونهايته جسد بلا حراك لم يجعل المرحلة التي بينهما ساحة غرور. إن كرامة الإنسان ليست في المادة الأولى التي خلق منها، بل في النفخة والتكليف والهداية والعبودية، وحين ينسى مصدر كرامته يبحث عنها في السيطرة على الآخرين، فيفقدوها وهو يظن أنه يثبته.

﴿أَلَمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ . يستطيع الإنسان أن يكون سبباً في انتقال النطفة، لكنه لا يخلق سرها، ولا يأمر الخلية الأولى أن تنقسم، ولا يحدد لكل خلية موقعها، ولا يقول لهذه: كوني عينا، وهذه: كوني قلباً، وهذه: احلمي ذاكرةً وصوتاً وإحساساً. قد يراقب العلم المراحل، ويصف الجينات، ويتدخل في بعض الأسباب بإذن الله، لكن وصف الآلية ليس خلقاً لها، ومعرفة بعض السنن ليست امتلاكاً لمصدر وجودها. إن العالم حين يكتشف كيف يقع الشيء لا يكون قد أجاب بالضرورة عن سر إيجادها، واليد التي تحسن التعامل مع القانون لم تخلق القانون.

وكم هو مدهش أن تنشأ من قطرة واحدة أجهزة متعددة، لكل منها نظام ووظيفة، ثم نتصل جميعاً في وحدة اسمها الإنسان. أين كانت صورة الوجه في تلك القطرة؟ وأين كان صوته، وضحك، وحنينه، وذاكرتة، واستعداده للإيمان أو الجحود؟ لم تكن الأشياء مخزنة فيها على هيئة صغيرة يمكن رؤيتها، بل كانت النطفة تمضي تحت أمر الخالق في رحلة إنشاء، حتى ظهر منها كائن يسأل عن أصل الكون. وهذه المسافة بين القطرة والإنسان أكبر في دلالتها من المسافة بين التراب والبعث؛ فمن أنشأ هذا التعقيد من تلك البداية لا يعجزه أن يعيده بعد فثاته.

إن الاستفهام ﴿أَلَمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ يعرّي وهم السيطرة. نحن نقول: أنجبنا، وزرعنا، وصنعنا، ونجبنا، لأن اللغة تنسب الأفعال إلى أسبابها القريبة، لكن التوحيد يعلمنا أن نرى خلف السبب قدرة المسبب. أنت لم تخلق ولدك، وإن كنت سبباً في مجيئه، كما أنك لا تخلق الثمرة وإن وضعت البذرة في الأرض، ولا تخلق الشفاء وإن تناولت الدواء. وحين يفهم الإنسان ذلك لا يترك الأسباب، لكنه يتواضع وهو يستعملها، فلا يعبد خبرته ولا يغتر بقدرته، ويعلم أن بين ما يفعله وما يقع مساحة لا يملكها إلا الله.

وهذه الرؤية تحرر الإنسان من الكبر ومن اليأس معاً؛ من الكبر لأنه ليس الخالق، ومن اليأس لأن الذي خلقه أول مرة قادر على أن يصلح ما عجز هو عن إصلاحه. إذا ضاقت بك نفسك، فتذكر أنك لست مشروعاً متروكاً لقوتك وحدها؛ إن رب البداية هو رب الطريق، والذي أخرجك من ظلمات الرحم إلى نور الدنيا يستطيع أن يخرج قلبك من ظلمات الحيرة إلى نور اليقين. ليست القدرة التي خلقت جسدك بعيدة عن دعائك، وليست الرحمة التي رعتك قبل أن تعرف كيف تسأل عاجزة عن رعايتك بعد أن عرفت بابها.

قال الله تعالى:

﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۖ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۖ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

بعد أن أعادت السورة الإنسان إلى قطرة البدء، نقلته إلى النهاية التي لا يستطيع أن يختار توقيتها ولا أن يدفع حضورها: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾. الموت إذن ليس خلافاً طارئاً على نظام الحياة، ولا حادثة أفلتت من يد التدبير، بل قدر موزع بين الخلق، معلوم الأجل والمكان والكيفية عند الله، يسير إلى كل نفس في موعدها الذي لا يتقدم ولا يتأخر. قد يموت الصغير ويُعمّر الكبير، ويسقط الصحيح ويبقى المريض، ويخرج إنسان من خطر عظيم ثم يموت في فراشه؛ لأن الأسباب الظاهرة ليست هي صاحبة القرار الأخير، وإنما تتحرك داخل التقدير الذي أحاط بكل شيء علماً.

وفي قوله: ﴿بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ معنى يجعل الموت حاضراً في المجتمع البشري كله، موزعاً بين البيوت والأجيال، لا يستثني طبقة ولا يحابي نسباً. إنه يدخل قصر الحاكم كما يدخل كوخ الفقير، ويقف عند سرير الطبيب كما يقف عند سرير مريضه، وينتزع القوي من بين حراسه كما يأخذ الوحيد في عزله. تستطيع الثروة أن تشتري دواءً أفضل، لكنها لا تشتري أجلاً زائداً بعد حضور الموعد، ويستطيع النفوذ أن يؤخر كثيراً من أحكام البشر، لكنه لا يرفع حكم الله. وما دام الموت مقدراً بيننا، فإن المساواة الأعمق تظل قائمة تحت كل تفاوت ظاهري؛ فالجميع يحملون في أجسادهم ختم الفناء، والجميع يقتربون في كل لحظة من الباب نفسه.

والموت في التصور القرآني ليس إعداماً للإنسان ولا عبثاً يهدم ما بناه الخالق، بل عبور من طور إلى طور، وفصل بين زمن العمل وزمن الجزاء. إن الذي قدر الموت هو الذي وعد بالبعث، فلا ينبغي أن نقرأ أحدهما بعيداً عن الآخر؛ فلو كان الموت نهاية مطلقة لبدت الحياة قصة مبتورة، ولذهب بر المصلح وفجور المفسد إلى مصير واحد، ولما ظهر تمام العدل في دمة مظلوم لم ينصفه أحد. لكن الموت يغلق ساحة الامتحان ليفتح باب النتيجة، ويمنع الدنيا من أن تكون الوطن الأخير حتى لا يخلد فيها الظلم ولا الألم ولا النقص.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ لا يستطيع أحد أن يسبق إرادة الله فيفلت من الموت، ولا أن يعطل القدرة، ولا أن يختبئ في ناحية خارجة عن الملك. قد يسبق الإنسان إنساناً في سباق، وقد تفلت جريمة من سلطة بشرية، وقد يعجز نظام عن الوصول إلى هارب، أما الله فلا يحجبه مكان ولا يربكه تغير صورة ولا يخرجها شيء عن العلم والقدرة. أين يذهب الإنسان من ربه وهو إن هرب حمل معه جسده الذي يجري فيه القدر، وإن اختبأ كان المكان الذي اختبأ فيه ملكاً لله، وإن استعان بالخلق كانوا جميعاً عبيداً تحت الحكم نفسه؟

وقد تحمل ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ كذلك معنى أن الموت لا يعجز الله عن إعادة الخلق، ولا يمنع قدرته من أن يستبدل أمثالهم وينشئهم فيما لا يعلمون. فليس موت الأجيال استنزافاً للخلق، ولا فناؤهم انتصاراً للعدم على القدرة. تمضي أمم وتأتي أمم، وتمتلئ الأرض بجبل ثم تخلو منه لمن بعده، ويبقى الخالق الذي لا يعتريه فناء ولا يلحق قدرته نقص. كل جيل يظن في ذروة حضوره أنه محور التاريخ، ثم لا تمضي عقود حتى يصير صوراً وأسماءً وذكريات، ويأتي من يسكن البيوت التي بناها، ويستعمل الطرق التي شقها، وربما لا يعرف عنه شيئاً. وهذا وحده كافٍ ليكسر غرور الحضارات التي نتصرف كأنها خاتمة الإنسان.

﴿عَلَيَّ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾؛ فإذا ذهب قوم جاء غيرهم، وإذا أعرض جيل لم يكن الله محتاجاً إليه، وإذا حمل المؤمنون أمانة ثم ضيعوها استطاع أن يستبدل قوماً يحملونها بحق. إن الدين ليس ملكاً لأحد، والحق لا يتوقف حياته على فرد أو جماعة؛ نحن الذين نتشرف بخدمته، ولسنا الذين نمنحه البقاء. وهذه الآية تغرس في أهل الإيمان تواضع المسؤولية؛ فلا يغتر داعية بأنه لا بديل له، ولا تنوهم جماعة أن مصير الرسالة متعلق باسمها، ولا يظن جيل أن الله لن يقيم الحق إلا على يديه. من وفى فقد نجا وشُرف، ومن نكص فإنما يخسر نفسه، وسيظل ملك الله مملوءاً بقدرته وتديبره.

﴿وَنُنَشِّئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ إن الإنسان يعرف من صور الوجود القدر الذي سمحت به تجربته المحدودة، أما أطوار النشأة الآخرة فليست نسخة بسيطة من شروط الدنيا. نحن نحاول تخيلها من خلال أجسادنا وموادنا وأزمنتنا، لكن الله يخبرنا أنه قادر على أن ينشئنا في هيئة وحال لا نعلمها. أجساد تبقى ولا تفنى، وتنعم بلا مرض، أو تتعذب بما يناسب دار الجزاء؛ وزمن لا يُقاس بأيام الأرض المحدودة؛ ووجود تنكشف فيه حقائق كانت وراء حجاب الحس. إن عجز الخيال عن تصور الكيفية لا يدل على استحالة الحقيقة، بل يدل على حدود الخيال؛ فالجنين في الرحم لو أتيح له أن يتصور السماء والبحر وألوان الغروب لما وجد في بيئته الضيقة مواد تكفي لرسمها، ومع ذلك يخرج إليها.

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾. لا تحتاجون في أصل البرهان إلى معرفة النشأة الأخرى، فقد عرفتُم الأولى، ومن ثبتت له القدرة على الابتداء ثبتت له القدرة على الإعادة. لكن المشكلة ليست دائماً نقص المعرفة، بل غياب التذكر؛ فالإنسان يعلم ثم يعيش كأنه لا يعلم، ويرى البرهان ثم تغطيه العادة. ولهذا لم يقل: فلولا تعلمون، بل قال: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ لأن الحقيقة موجودة في الوعي، لكنها تحتاج إلى من يرفع عنها ركام الغفلة.

وما أكثر ما يحتاج الإيمان إلى التذكر لا إلى معلومة جديدة. نحن نعلم أن الموت آت، لكن جنازة تمر فتعيد للمعلومة حرارتها، ونعلم أن الله يرزق، لكن ضيقاً يداھمنا فننسى ما شهدناه من لطفه في أعوام مضت، ونعلم أن الدنيا زائلة، ثم نتخاصم على حطامها كأنها لا تزول. التذكر هو أن تعود الحقيقة من هامش الذهن إلى مركز القرار؛ أن لا يبقى الموت خبراً تعرفه، بل ميزاناً تختار به، ولا يبقى البعث عقيدة تحفظها، بل أفقاً تصنع في ضوئه يومك.

قال الله تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ۚ إِنَّكُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۚ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۚ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ۚ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۚ﴾.

بعد آية الخلق ينتقل القرآن إلى آية الرزق، من رحم الأم إلى رحم الأرض، ومن النطفة التي يصير منها الإنسان إلى الحبة التي يصير منها طعامه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾. والحرث عمل بشري ظاهر؛ فالإنسان يشق الأرض، ويهيئ التربة، ويلقي البذر، ويسقي ويتابع، ولذلك قد ينسب النتيجة كلها إلى مهارته وينسى ما وراء يده من قوى لم يصنعها. تأتي الآية فلا تلغي عمله، بل تضعه في موضعه الصحيح: أنت تحرث، لكن هل أنت الذي تزرع؟ هل أنت الذي يمنح الحبة سر الانشقاق، ويدفع الجذر إلى أسفل والساق إلى أعلى، ويقسم الوظائف داخل نبته صغيرة لا عقل لها، ثم يحول التراب والماء وضوء الشمس إلى سنبلة وطعم ورائحة وغذاء؟

﴿إِنَّكُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾. في الاستفهام فصل دقيق بين مباشرة السبب وخلق النتيجة؛ فالإنسان حارث، والله هو الزارع على الحقيقة. ونحن نحتاج إلى هذا الفصل في كل أعمالنا، لأن النفس تحب أن تستولي على النجاح بعد وقوعه، فتقول: أنا صنعت، وأنا خططت، وأنا حققت، وتنسى عدد الأشياء التي لم تكن تحت سلطانها. لقد اخترت البذرة، لكنك لم تخلق فيها الحياة؛ وبذلت الجهد، لكنك لم تخلق عقلك ولا قوتك ولا الفرصة ولا الأسباب المتعاونة. ولو اختل عامل صغير مما لا تملكه لضاع جهدك كله.

وهذا لا يحول التوحيد إلى كسل؛ فالآية لم تدم الحرث، بل نسبت إلى الإنسان فعله: ﴿مَا تَحْرُثُونَ﴾. المطلوب أن تحرث بجد، ثم تعرف من الذي أنبت، وأن تخطط بإتقان، ثم لا تعبد الخطئة، وأن تستعمل السنن، ثم لا تنس رب السنن. التوكل ليس ترك البذرة في المخزن وانتظار الحصاد، كما أن الأخذ بالأسباب ليس الاعتقاد بأن البذرة تنبت مستقلة عن الله. المؤمن يجمع بين يد تعمل وقلب يفكر؛ فإن نجح شكر، وإن تأخر الثمر صبر، وإن خاب سبب لم ينهدم إيمانه، لأنه كان متعلقاً بالمسبب لا بالأداة.

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾. بين اخضرار الزرع وتحوله إلى هشيم أمر واحد من الله. قد يكتمل المشهد حتى يظن صاحبه أن الحصاد صار مضموناً، ثم تأتي ريح أو آفة أو جفاف فيتحول ما انتظره أشهراً إلى حطام. إن رؤية السنايل قائمة لا تمنح الإنسان ملك المستقبل، كما أن اكتمال مشروعاته لا يعني أنها خرجت من دائرة القدر. وهذا لا يراد به أن يعيش خائفاً مشلولاً، بل أن يتخلص من غرور الضمان، وأن يستقبل النعمة بالشكر منذ بدايتها، لا بعد أن يضعها في مخزنه فقط.

والحطام هو الشيء اليابس المتكسر بعد أن كان حياً ناضراً، وفيه صورة مكثفة للعالم كله؛ فما أكثر ما يزهر ثم يصير حطاماً: شباب الجسد، وقوة الدول، وضجيج الشهرة، وأسواق المال، ومشروعات البشر. وليس العاقل من يرفض الزهرة لأنها ستذبل، بل من ينتفع بجملها دون أن يظنها خالدة، ويستعملها في مرضاة من أبقاها له. فإذا نظر المؤمن إلى الحقل رأى رزقاً، ورأى معه درساً: الذي أخرج النبات قادر على إخراج الموتى، والذي حفظ الزرع قادر على سلبه، والذي رزقه الحبة يطالبه ألا يقطعها عن حق الفقير.

﴿فَقَلَّتُمْ تَعْكُهُونَ﴾؛ تتحول حالة أصحاب الزرع بعد صيرورته حطاماً إلى دهشة وحسرة وحديث لا ينقطع. كانوا قبل ساعات يحسبون الأرباح، فإذا هم يقلبون وجوه الخسارة ويقولون: ﴿إِنَّا لَغَرْمُونَ﴾ بل نحن محرومون. والغرام خسارة تلزم صاحبها، فقد ذهبت النفقة والجهد وبقي الدين والتعب، ثم يبلغ الشعور ذروته حين لا يرون أنفسهم خاسرين فحسب، بل محرومين من أصل الثمرة.

إن عبارة ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ تكشف هشاشة شعور الإنسان بالاستحقاق؛ فقد يعمل فيظن أن النتيجة دين واجب للكون عليه، فإذا لم تأت شعراً الوجود ظلله. لكن العمل سبب لا عقد إلزام على رب العالمين، والنتائج فضل وتقدير وحكمة. قد يحرم الإنسان ثمرة سعيه الظاهرة، ويكون في الحرمان حفظ له من فتنه، أو تطهير من ذنب، أو توجيهه إلى طريق آخر، أو إيقاظ من تعلق قاتل. وليس كل حطام نهاية؛ فقد يكون الحطام بداية بصيرة، إذا أعاد الإنسان من خلاله اكتشاف أن الرزق ليس في يد الأرض، وأن الحقل مهما اتسع فقير إلى كلمة الله.

وتوقظ الآيات كذلك الضمير الحضاري؛ فالحبة التي أتبها الله ليست سلعة اقتصادية باردة فقط، بل أمانة حياة. كيف يهدر الإنسان الطعام، وفي الأرض من يبحث عن لقمة؟ وكيف يحتكر الزرع ليضاعف ثمنه، وهو لم يخلق حبة منه؟ وكيف ينسب الفضل كله إلى السوق والتقنية، ثم ينسى اليد العليا التي أخرجت الحياة من التراب؟ إن الاعتراف بالله زارعاً ينبغي أن يظهر شكراً وعدلاً ورحمة، لا مجرد كلمة تقال عند رؤية المطر. فمن شكر النعمة حفظها، وأدى حقها، ولم يجعل منها وسيلة لإذلال عباد الله.

قال الله تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿١﴾ أَلَمْ أَنْزِلْهُ مِنْ الْمَازِنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٢﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٣﴾﴾

من الحبة إلى القطرة، ومن الطعام إلى الماء الذي لا تستقيم حياة بدونه. لا تسأل الآية عن البحار البعيدة ولا عن الظواهر النادرة، بل عن الماء ﴿الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾، الماء الملاصق لأفواهكم، الداخل في دمائكم وخلاياكم، الذي يتكرر حضوره حتى كادت العادة تحو معجزته. وهذا منهج قرآني بديع: يعيد الدهشة إلى ما قتله الألفة. إننا ندهش من حادثة نادرة، لكننا لا ندهش من كأس ماء صافٍ، مع أن اجتماع صفائه وعذوبته ووصوله إلينا وتوافقه مع حاجات الجسد آية متجددة.

﴿أَلَمْ أَنْزِلْهُ مِنْ الْمَازِنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾. يستطيع البشر حفر الآبار وبناء السدود وتنقية المياه ونقلها في الأنابيب، لكنهم لا يخلقون الدورة الكبرى التي تصعد فيها المياه بخاراً، وتحملها السحب، وتنتقل بها الرياح، ثم تهطل بقدر على الأرض. وكل تقدم علمي في فهم هذه الدورة ينبغي أن يزيد العاقل خشوعاً، لأنه يكشف مزيداً من الدقة، لا أن يحجب الفاعل خلف وصف الفعل. القول بأن المطر ينزل وفق عمليات التبخر والتكاثف لا يناقض أنه من تنزيل الله؛ فهذا شرح لبعض الكيفية التي أودعها الله في خلقه، وليس نفياً لمن خلق الماء والسحاب والحارة والقانون.

إن السحابة التي تمر فوق المدينة تبدو خفيفة في العين، لكنها تحمل أطناناً من الماء، ثم لا تسقط بكلمة واحدة تحطم ما تحتها، بل ينزل الماء قطرات موزعة، وتختلف أحجامها وسرعاتها، وتسوقها الرياح إلى أرض دون أرض وفق حكمة قد نعلم بعض وجوها ويغيب عنا كثير منها. ورب مطر نزل بغير مصير قرية، وأحيا مرعى، وملاً بئراً، وغسل خوفاً كان يسكن قلوباً ترى أرضها تشقق. وفي لحظة النزول يعرف الإنسان معنى أن تأتي الحياة من فوق، وأن الرقاب التي كانت تنظر إلى التراب تنتظر ما يرسله رب السماء.

﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾؛ كان يمكن للماء الذي ينزل أن يكون شديد الملوحة والمرارة فلا يشرب، وكان يمكن أن تبقى مياه الأرض كلها على صفة البحار المالحة، لكن الله أدار دورة العذوبة، وجعل التبخر يترك الأملاح خلفه، ثم أعاد الماء طاهراً من السماء. نحن لا نشكر نعمة وجود الماء وحدها، بل نعمة صفته أيضاً، فكم من شيء موجود لا ينتفع به الإنسان لعدم توافقه خصائصه مع حاجته. إن الكأس الذي تمسكه ليس «ماءً» فقط، بل ماء موزون

الخصائص، مهياً لجسدك، لا طعم منقراً فيه ولا ضرر في أصله، وهذه الدقة وجه آخر من وجوه الرحمة.

وتضع الآية احتمال الأجاج أمام القلب لا لتفزع من كل جرعة، بل ليشعر بما فيها من منة. فالإنسان لا يعرف قيمة العذوبة حقاً إلا إذا ذاق الملوحة، ولا يشعر بنعمة الصحة إلا حين يمر به المرض، ولا يدرك دفء الأمان إلا حين يرى الخوف قريباً. لكن الوحي يريد أن يربي فيه وعياً لا يحتاج دائماً إلى فقد النعمة كي يعرفها؛ أن يشكر قبل أن يُحرم، ويرى الفضل وهو يعيش فيه، لا بعد أن يصير ذكرى.

﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾. إن القضية التي تنتهي إليها آية الماء ليست المعلومة العلمية، بل الموقف الأخلاقي: الشكر. فما قيمة أن تعرف تركيب الماء ولا تعرف حق المنعم؟ وما قيمة أن تدرس دورة المطر ثم تستخدم الماء في الإسراف، أو تمنعه عن يحتاج إليه، أو تفسد منابعه؟ الشكر ليس حركة لسان منفصلة عن السلوك، بل أن ترى النعمة من الله، وتحمده عليها، وتستعملها فيما يحب، وتحفظها من العبث. وقد يكون إغلاق صنوبر يهدر الماء صورة من صور الشكر، كما يكون سقي العطشان عبادة، وحماية الموارد من التلوث وفاءً بالأمانة.

وفي الماء معنى روحي يتجاوز الجسد؛ فكما لا تحيا الأرض بغير الماء، لا يحيا القلب بغير الوحي. وقد ينزل المطر على أرض صلبة فلا تشربه، كما يمر القرآن على قلب أغلقته القسوة فلا يدخل فيه؛ وينزل على أرض طيبة فتتحول خضرة وثماراً، كما يدخل كلام الله قلباً متواضعاً فيثمر عملاً وطمأنينة. ولا يكفي نزول الماء إذا لم تفتح الأرض مسامها، كما لا يكفي بلوغ الآية إذا لم يفتح الإنسان لها صدق الإصغاء. فما أكثر السحب التي مرت فوقنا، وما أقل الحقول التي سمحنا لها أن تنبت في أرواحنا.

قال الله تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۖ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ۚ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقِيمِينَ ۚ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۝﴾

ثم تقف السورة بالإنسان أمام النار التي يوقدها بيده: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾. يقدح الشرر، ويقرب الوقود، فتشتعل النار، وقد يتوهم أن صنعها منه لأنه بأمر الإيقاد، لكن القرآن يعيده مرة أخرى إلى أصل القدرة: من أنشأ الشجرة التي تحتزن أسباب الاشتعال؟ ومن أودع في المادة هذه القابلية؟ ومن خلق القوانين التي تجعل الاحتكاك والحرارة والوقود تلتقي في لهب؟ يستطيع الإنسان إشعال النار، لكنه لم يخلق سر النار، كما يستطيع أن يضغط مفتاحاً فيضئ مصباح، لكنه لم يخلق الطاقة ولا المادة ولا العقل الذي عرف كيف يوظفهما.

﴿أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾. تجتمع في الصورة مفارقة عجيبة: النار تخرج من الشجر الأخضر الذي يوحي بالماء والحياة، وكأن القدرة تُخرج الضد من ضده، وتحتزن الحرارة في صورة لا تبدو للنظر. والذي أخرج النار من الشجر لا يعجزه أن يخرج الحياة من العظام، ولا أن يجعل في الشيء ما لا يتوقعه العقل المحصور في الظاهر. إن الكون ليس سجناً لقوانين مستقلة عن الله، بل آيات تتجلى من خلالها حكمته؛ وما نسميه خصائص الأشياء هو ما أودعه فيها، ولو شاء لنزع منها ما نعرفه، كما جعل نار إبراهيم برداً وسلاماً بأمره.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾؛ النار القريبة التي يستدفي بها الإنسان ويطهو طعامه ينبغي ألا تمر أمام بصره بلا تذكير. إنها تذكر بقدرة الله، وتذكر بنعمة تسخير الطاقة، وتذكر كذلك بالنار الكبرى التي حذرت منها السورة. كل لهب دنيوي رسالة مصغرة تقول: إن الألم الذي تخشاه من هذه النار الضعيفة ينبغي أن يوقظك من الطريق إلى نار الآخرة. وليس المقصود أن تحول الحياة إلى رعب مرضي، بل أن يبقى في القلب وازع يمنع الشهوة العاجلة من أن تنسي العاقبة.

ومن رحمة الله أن جعل في الدنيا مذكرات حسية بالحقائق الغيبية؛ فجعل النوم شبيهاً بالموت ثم يبعثنا منه، وجعل الربيع بعثاً للأرض بعد موتها، وجعل النار تذكر بالنار، وجعل لذة الطاعة تفتح نافذة على نعيم القرب. الإنسان كثير النسيان، ولذلك تتكرر حوله الآيات، لكن الغافل يحول التذكارات إلى عادات. يرى النار ألف مرة ولا يسأل عما تقول، ويشيع جنازة ثم يعود إلى خصومته على الدنيا، ويرى الأرض تحيا بالمطر ولا يتذكر بعث الأجساد. المشكلة ليست في ندرة العلامات، بل في عين فقدت قدرتها على القراءة.

﴿وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾؛ أي منفعة للمسافرين والنازلين في القواء، وهي الأرض الخالية، ويدخل في معناها انتفاع الناس بها في معاشهم. في الليلة الباردة الموحشة تكون النار صحةً ودفعاً ونوراً وطعاماً وأماناً، فتجتمع فيها وظائف متعددة. والشيء نفسه الذي هو تذكرة بالعذاب قد يكون رحمةً في الحياة، بحسب موضعه وحده واستعماله؛ وهذه حكمة كبرى: ليست القوة شراً في ذاتها، وإنما يحدها ما تُسخر له. النار تطهو الطعام أو تحرق البيت، والمعرفة تعمّر أو تدمر، والكلمة تهدي أو تضل، والمال يغني أو يستعبد. والنعم لا تحمل أخلاقها وحدها، بل يكشف استخدامها أخلاق من يحملها.

ثم تأتي النتيجة التي ينبغي أن يصل إليها المتأمل بعد أن رأى خلق نفسه وزرعه وماءه وناره: ﴿تَسْبِيحٌ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾. التسبيح ليس انتقالاً مفاجئاً عن الأدلة، بل هو الثمرة الطبيعية لها؛ حين ترى القدرة لا تملك إلا أن تنزه صاحبها عن العجز، وحين ترى الحكمة تنزهه عن العبث، وحين ترى الرحمة تنزهه عن الظلم، وحين ترى أنك محاط بعطائه تنزه قلبك عن أن يجعل معه شريكاً. والتسبيح هنا يجمع المعرفة والعبادة؛ فليس المقصود أن ينطق اللسان بلفظ «سبحان الله» والقلب باقٍ في غفلته، بل أن تتحول رؤيتك للكون إلى تنزيه حي.

﴿رَبِّكَ﴾؛ الرب الذي خلقك ورباك بالنعم ونقلك في الأطوار ولم يترك سدى، و﴿الْعَظِيمِ﴾ الذي لا تقاس قدرته بقدرة، ولا يحيط العقل بكنهه جلاله، وليس كمثل شيء.. وإذا كان ربك عظيماً، فلا تجعل خوف المخلوق أعظم في قلبك من خوفه، ولا تجعل رضا الناس أكبر من رضاه، ولا تجعل هموم الدنيا تحجبك عن ملكه. كم تصغر الأشياء حين يكبر الله في القلب! لا لأنها ثلاثي من الواقع، بل لأنها تعود إلى حجمها الصحيح تحت عظمتة. والحناف يجد في التسبيح أماناً؛ فربه منزّه عن أن يضيعه إن صدق، والمظلوم يجد فيه يقيناً؛ فربه منزّه عن الظلم، والحاتر يجد فيه نوراً؛ فربه منزّه عن العبث.

قال الله تعالى:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۚ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۚ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۚ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۚ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۚ﴾.

بعد آيات الخلق والرزق، ترتفع العين من الأرض إلى السماء: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾. والعبارة تحمل تأكيد القسم وتعظيم المقسم به، وتلفت النظر لا إلى النجوم وحدها، بل إلى مواقعها؛ إلى نظامها ومساراتها ومنزلها وما بينها من أبعاد لا تكاد الخيلة تستوعبها. الإنسان يرى في ليلته نقاطاً صغيرة تلعب في السماء، لأنها بعيدة عنه، لكن ما يبدو نقطة قد يكون جرمًا هائلًا، وما يبدو متجاوزًا في صفحة البصر تفصل بينه مسافات شاسعة. وهكذا تعلمنا النجوم درسًا في التواضع: ليست الأشياء على قدر ما تبدو لعينك، وعجزك عن إدراك عظمتها لا ينقص من عظمتها شيئًا.

و﴿مَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ تفتح أمام القلب أفق الدقة؛ فالكون ليس أجرامًا مبعثرة بلا نظام، بل لكل جرم موقع ومسار وقدر. لو اختلت الموازين التي تحفظ الأجرام لانتقلب النظام اصطدامًا وفوضى، لكن الخالق الذي أمسك السماء وأجرى الكواكب والنجوم في أفلاكها هو الذي أنزل القرآن بميزان الحق. وكأن القسم يربط بين انتظام الكُتُب المنظور وانتظام الكُتُب المقروء؛ فالذي لم يخلق في السماء عبثًا لم ينزل في الهداية عبثًا، والذي جعل لكل نجم موقعًا جعل لكل كلمة في القرآن موضعًا، ولكل حكم حكمة، ولكل قصة وظيفة، ولكل فاصلة أثرًا في بناء المعنى.

﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾. يأتي الاعتراض داخل السياق ليوقظ الإنسان من محدودية إدراكه؛ فالقسم عظيم، لكن علمكم بعظمته ناقص. وفي هذا التعبير باب واسع إلى معنى أن جهلنا بالشيء لا يساوي صغره؛ فكثير من آيات الله تمر بنا ولا ندرك إلا سطحها، ولو اتسع العلم لرأينا من أبعادها ما يجعل القلب يرتجف. والقرآن لا يخشى العلم الصحيح، بل يفتح له الأفق ويقول: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾؛ فكلما تكشفت ضخامة الكون، ازدادت مواقع النجوم في الحس عظمة، واتسع مدلول القسم، بشرط أن يبقى العلم موصولًا بالتواضع، لا أن يتحول إلى حجاب جديد من الغرور.

والمقسم عليه هو: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾. والكرم وصف يفيض بالدلالة؛ فهو كريم في مصدره، كريم في لفظه، كريم في معناه، كريم في عطائه، يكرم من يصحبه، ويرفع من يعمل به، ولا يخل على قارئه بهدية ما دام يدخل إليه بقلب طالب. قد تعود إلى الآية عشرات المرات، ثم تفتح لك في مرة لاحقة معنى لم تره، لا لأن كلماتها تغيرت، بل لأن قلبك وصل إلى موضع

جديد يستطيع استقبال نور جديد منها. إنه لا ينفد بالعباء، ولا يبل بالتركار، ولا يصبح قديماً لأن الزمن مر عليه؛ فهو يخاطب أصل الإنسان الذي لا يتغير، ويكشف له ربه ونفسه وطريقه ومصيره.

وكريم أيضاً لأنه لا يهين العقل، بل يدعو إلى النظر، ولا يخاطب الروح منفصلة عن الجسد والحياة، بل يبيّن الإنسان كله؛ يصحح اعتقاده، ويهذب شهوته، ويقمّ عدله، ويضبط علاقته بالمال والسلطة والأسرة والمجتمع. وهو كريم لأنه حين يواجه الإنسان بخطيئته لا يغلق عنه باب العودة، وحين يخوفه بالنار يفتح أمامه الجنة، وحين يذكر ضعفه لا يسلبه كرامته، بل يردّه إلى مصدر القوة. كل آية وعيد فيها يد خفية تدعوك إلى النجاة قبل فوات الوقت، وكل أمر تكليف يحمل في داخله تكريماً؛ لأن الله لم يتركك بهيمة لشهوتك، بل خاطبك بوصفك مخلوقاً قادراً على أن يعرف ويختار ويرتقي.

﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾؛ مصون محفوظ، مستور عن أن تناله أيدي العبث، له في الملاء الأعلى موضع من الحفظ والكرامة. والقرآن الذي وصل إلى الأرض لم يخرج من مصانع الفكر البشري ولا من اضطراب التجارب التاريخية، بل له أصل كريم محفوظ. وفي وصفه بالمكنون طمأنينة إلى أن الوحي ليس نصّاً تائهاً في صراع الروايات، بل كلام تكفل الله بحفظه، فلا تضع حقيقته لأن البشر اختلفوا حوله، ولا ينقص نوره لأن قوماً أعرضوا عنه.

﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾؛ وفي سياق الكتاب المكنون يظهر معنى مس الملائكة المطهرين له، وتأسّس الأمة من الآية أيضاً بتعظيم شأن الطهارة عند مس المصحف. غير أن وراء المعنى الفقهي إشارة تربوية جليّة: إن القرآن كتاب طهارة، وكلما طهر القلب من الكبر والهوى كان أقدر على ملازمة هداياته. قد تمس اليد صفحات المصحف، ويبقى القلب بعيداً عن معانيه؛ لأن المس الحقيقي الذي يغير الإنسان يحتاج إلى تواضع وصدق. فالذي يدخل إلى القرآن ليهتدي غير الذي يدخله ليثبت رأياً سابقاً، والذي يقرأه وهو مستعد أن يتغير غير الذي يقرأه ليغير دلالة الآيات حتى توافي شهوته.

ليس معنى ذلك أن المذنب يُحرم القرآن حتى يظهر كاملاً، بل القرآن نفسه من أعظم أبواب تطهيره؛ إنما المطلوب أن يدخل إليه معترفاً بحاجته، لا مزكياً نفسه، وأن يجعل الآية مرآة يرى فيها عيبه، لا سلاحاً لا يرى به إلا عيوب الآخرين. كم من إنسان يحسن توجيه الوعيد إلى خصومه، ولا يسمح لحرف منه أن يطرق قلبه! وكم من قارئ يبحث في القرآن عما يمنحه الانتصار في الجدل، ولا يبحث عما يمنحه النجاة! طهارة التلقي أن تقف بين يدي الكلام كما يقف المريض بين يدي الدواء، راغباً في الشفاء ولو كان مرّاً على ما ألفتة النفس.

﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ هذه هي هوية القرآن الحاسمة: ليس إنتاج عبقرية بشرية، ولا صدى لبيئة محدودة، ولا حدساً روحياً ارتقى حتى توهم الوحي، بل تنزيل من رب العالمين. ومن كان رباً للعالمين فهو أعلم بما يصلحهم، لأنه خلق عقولهم وفطرهم ومجتمعاتهم، وعلم ما كان وما سيكون. حين يتعارض الهوى العابر مع الوحي، فالمشكلة ليست في علم الله، بل في ضيق رؤية الإنسان؛ وحين يستثقل العصر حكماً من أحكامه، لا يصير استئصال العصر ميزاناً يحاكم به كلام رب العصور.

وكونه من ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني أن خطابه لا يسجن في قبيلة أو قرن، بل يحمل الهداية للإنسان من حيث هو إنسان. تتغير الأدوات والأزياء والمدن، لكن خوف الإنسان وطمعه وحبه وكبره وحاجته إلى المعنى تظل قائمة؛ ولذلك يبقى القرآن قادراً على تسمية أعمق ما يجري فيه. قد يغير العصر شكل الطغيان، لكن القرآن يكشف جوهره، ويغير شكل الشهوة، لكنه يضع لها ميزانها، ويغير وسائل التضليل، لكن قوله يظل فرقاناً. مصدر عالميته ليس اتساع الانتشار وحده، بل صدوره عن رب العالمين.

قال الله تعالى:

﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ۚ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾.

بعد أن أثبتت السورة كرامة القرآن وربانية مصدره، واجهت الإنسان بموقفه منه: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾. أبهذا الكلام الذي يكشف لكم بداية الخلق ونهاية المصير تتعاملون بالتهاون واللين المذموم والتكذيب؟ أتجعلونه حديثاً هامشياً يمكن تأجيله، أو خطاباً يزّن به المجلس ثم لا يكون له سلطان على الحياة؟ إن الإذهان قد يكون رفضاً مستتراً لا يعلن الحرب على القرآن، لكنه يفرغه من قدرته على الحكم والتغيير، يمدحه صاحبه بلسانه، ثم يضع بينه وبين القرار حواجز لا يسمح له بتجاوزها.

وهذا أخطر من التكذيب الصريح أحياناً؛ لأن المكذب الظاهر يعرف الناس موقعه، أما المداهن فقد يحمل المصحف ويحتفي بجمال التلاوة، لكنه لا يريد للقرآن أن يقترب من مصلحته، أو يعيد ترتيب ولائه، أو يهذب شهوته، أو يحاكم ظلمه. يريد منه البركة دون التكليف، والطمأنينة دون التوبة، والجمال الصوتي دون سلطان المعنى. فإذا قالت الآية ما يوافقها رفعها، وإذا مست موضعاً من هواه بحث عن مخارج تبعدها. هكذا يتحول القرآن من قائد إلى ضيف شرف، ومن ميزان إلى زينة، ومن خطاب يطلب الاستجابة إلى نص يكتفي الناس بالاحتفاء به.

والمداهنة قد تظهر في صناعة خطاب ديني يخشى الناس أكثر مما يخشى الله؛ يخفف الحق حتى لا يزعج صاحب سلطة، ويكتم جزءاً من الوحي حتى لا يغضب جمهوراً، ويبدل أسماء الأشياء كي يبقى مقبولاً. أما القرآن نفسه فلا يداهن الإنسان؛ يخاطبه بحقيقة أصله، ويخبره بالموت، ويصف له النار، ويكشف كبره وشحه وضعفه، ثم يفتح له الرحمة. إنه يحترمه بما يكفي ليقول له الحقيقة كاملة، ولا يعامله كطفل لا يحتمل إلا ما يرضيه. ومن أحب القرآن حقاً أحب صدقه حتى حين يجرح وهمه، لأن الجرح الذي يفتحه النور في الكبر بداية شفاء.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾؛ أي تجعلون حظكم من هذا الرزق والوحي والشكر أن تتقابلوا النعمة بالتكذيب، ومن معانيها ما كان يقوله أهل الجاهلية في نسبة المطر إلى الأنواء، فيصرفون شكر المنعم إلى الأسباب والمطالع. يا لها من خسارة أن تكون النعمة نازلة إليك، فلا يكون نصيبك منها إلا أن تستعملها في حجب المنعم! ينزل المطر، فتتحرك الأرض، ويأكل الإنسان، ثم ينسب الفضل استقلالاً إلى النجم أو الطبيعة أو المصادفة، كأن شرح الوسائط يغنيه عن شكر من خلق الوسائط كلها.

والتكذيب ليس دائماً أن يقول المرء: القرآن غير حق، بل قد يكون أن يعيش على رزق الله ثم يتصرف كأن الله لا يراه، وأن يوقن بأن المال أمانة ثم يجمعه من حرام، وأن يقرأ وعده ووعيده ثم يجعل المرجع الأخير في حياته لمصلحته. كل معصية تحمل قدراً من عدم التصديق العملي في لحظتها؛ إذ لو امتلأ القلب بحضور نظر الله والوقوف بين يديه، لضاقت مساحة الجراءة. ولهذا يحتاج المؤمن إلى تجديد التصديق، لا بمعنى إعادة الشهادة لفظاً فحسب، بل بأن يرد إلى حقائق الإيمان قوتها في القلب حتى تصير أقدر على توجيه السلوك.

قال الله تعالى:

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ۖ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ۖ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۖ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۖ﴾.

تصل السورة إلى فراش الموت، إلى المشهد الذي يتكرر في البيوت والمستشفيات منذ بدء الخليقة، لكنه يظل في كل مرة جديداً ومزجلاً. ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾، لم تذكر الآية الروح تصريحاً، لأن حضورها مفهوم من رهبة المقام، ولأن الأنظار كلها متعلقة بتلك الحقيقة الخفية التي كانت تملأ الجسد حياة ثم بلغت موضع خروجها. الأطراف تبرد، والصوت ينقطع، والنظر يتغير، والأقربون يحيطون بالمتضرر، لكن أحداً لا يرى الروح وهي تغادر، ولا يمسك بها، ولا يعرف حقيقة ذلك الانتقال إلا بما أخبر الله.

﴿وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ﴾. لا شيء أشد على الإنسان من أن يتحول في لحظة حاسمة من فاعل إلى ناظر. لقد اعتاد أن يتدخل: إذا جاع أطعم، وإذا مرض طلب العلاج، وإذا وقع خطر استنفر الأسباب؛ أما هنا فنبلغ الأسباب حدودها، ويقف الحب إلى جوار حبيبه فلا يملك له إلا النظر والدعاء. قد يكون حول السرير أطباء مهرة وأجهزة متقدمة وأموال كثيرة، وكل ذلك نافع في مجاله ما دام الأجل لم يأت، فإذا جاء الموعد انكشفت الحدود، وبقي البشر ينظرون.

والآية لا تحتقر الطب ولا تنفي قيمة المحاولة، لكنها تكشف الفرق بين معالجة أسباب الحياة وامتلاك الحياة نفسها. الطبيب يساعد الجسد على مقاومة المرض، لكنه لا يضع الروح فيه، والدواء يعمل بما أودع الله من خصائص، لكنه لا يكتب الأجل. وما أجمل العلم حين يعرف حدوده؛ فإنه يصير رحمة متواضعة، لا ادعاء سيادة. وما أخطر حين يوهم الإنسان أن السيطرة على بعض الظواهر تعني السيطرة على الوجود؛ ففراش موت واحد يكفي ليعيد الحضارة كلها إلى سؤالها الأول: ما الحياة، ومن يملكها، وإلى أين يذهب الإنسان بعدها؟

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾. قرب يليق بالله تعالى لا يشبه قرب المخلوق من المخلوق، فهو سبحانه منزّه عن مماثلة خلقه، محيط بعبده علماً وقدرة وسلطاناً، وملائكته الحاضرون بأمره أقرب إلى المحتضر من أهله الذين يحيطون بسريره، لكنهم لا يبصرون عالم الغيب. الأهل يرون ظاهر الجسد، والله يعلم ما يجري في السر، وما يحضره من ملائكته، وما يفتح أمام الروح من طريق. وما أضيق معرفة الإنسان في تلك اللحظة؛ يحقد في وجه حبيبه، وهو لا يدري ما الذي يراه المحتضر، ولا أي إشارة أو نذارة تتلقاه، ولا كيف بدأت الحدود بين عالمين تنفتح له.

إن قوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ﴾ يرسم حدود الحس. نحن لا نرى الشيء فلا يجوز أن نقول إنه غير موجود؛ فالبصر أداة محدودة لا تلتقط إلا نطاقاً من المخلوقات، والوجود أوسع من حدود العين. كم من موجات وقوى لم يكن البشر يرونها، ثم صنعوا أدوات تكشف آثارها، ولم يكن عدم رؤيتها نفيًا لوجودها. وعالم الغيب لا يصبح باطلاً لأن الحواس لم تُخلق لإدراكه في طور الدنيا؛ بل يخبرنا به من خلق الحواس والعالمين، ويمنحنا من دلائل صدق خبره ما يقوم به اليقين.

ثم يأتي التحدي: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٢٠﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. إن كنتم غير مريوين مهجورين تحت سلطان الله، وغير محاسبين مجزيين، فأعيدوا الروح بعد بلوغها الحلقوم. إذا كان الإنسان سيد نفسه استقلالاً، فهذه لحظة إثبات السيادة؛ وإذا كان الكون بلا رب ولا حساب، فلماذا لا يمسك أعز الناس روح أحب الناس إليه؟ يسقط التحدي كل الأقعة؛ لأن الذي يتكلم طويلاً عن استقلاله المطلق يكتشف أمام الموت أنه لا يملك الأمر الذي يتوقف عليه كل أمر.

والتحدي لا يوجه إلى الضعفاء وحدهم، بل إلى البشرية كلها مجتمعة. قد تتطور أدواتها، وتنقل أعضائها، وتتعش قلباً توقف لأسباب قابلة للعلاج، وتطيل متوسط العمر، لكن ذلك كله لا يعني إرجاع روح استوفى الله أجلها. الفرق عظيم بين إنقاذ جسد ما زالت مدة حياته مكتوبة وبين رد نفس انتهى أجلها. والتقدم الحقيقي لا يلغي الموت، وإنما قد يغير بعض أسبابه وتوقيته الظاهر في نظرنا، بينما يبقى الأجل في علم الله ثابتاً.

وفي هذا المشهد عزاء خفي لأهل الفقد؛ فإن الروح لم تضيع في فراغ، ولم تنفلت من الكون، وإنما انتقلت تحت علم الله وقربه وسلطانه. أنتم كنتم تنظرون عاجزين، لكنه سبحانه لم يكن غائباً، وكان أقرب بعلبه وقدرته ورحمته. المؤمن حين يفقد عزيزاً لا ينكر وجع الفراق، فالدعوة رحمة، لكنه يعلم أن من رحل خرج من يد عاجزة إلى حكم رب لا يظلم، وأن الطريق وإن احتجب عن بصره معلوم عند الله. لا يملك أن يرجعه، لكنه يملك أن يلحق به على الإيمان، وأن يرسل إليه دعاءً وصدقةً وأثراً صالحاً بإذن الله.

قال الله تعالى:

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٠٠﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿١٠١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿١٠٢﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿١٠٣﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكِيدِينَ الضَّالِّينَ ﴿١٠٤﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿١٠٥﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

عند الموت لا تبدأ هوية جديدة من فراغ، بل تتكشف الهوية التي بُنيت خلال العمر. تعود الأصناف الثلاثة التي ذكرتها السورة في بدايتها، لكن المشهد الآن انتقل من ساحة القيامة الكبرى إلى لحظة الفرد الخاصة: أنت نفسك، حين تبلغ روحك الحلقوم، إلى أي صنف تنسب؟ هكذا تغلق السورة المسافة بين المصير الكوني والمصير الشخصي؛ فالواقعة ليست خبراً عن جموع بعيدة، بل واقعة كل إنسان حين يخرج من دنياه ويدخل أول منازل آخرته.

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٠٠﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾. يبدأ الجزء بـ ﴿رَوْحٌ﴾، أي راحة ورحمة وطمأنينة، كأن الروح التي طال تعبها في الأرض دخلت فضاءً واسعاً لا اختناق فيه. كم حمل المقرَّب في الدنيا من مقاومة النفس، وكم ضاق صدره بغربة الحق، وكم أخفى وجعاً وصبر كيلا يعترض على ربه، فإذا أول ما يستقبله الراحة. إن الله لا ينسى تعب عبده، وإن تأخر التعويض؛ وكل ألم تحمله في سبيله كان يقترب به من اللحظة التي يقال فيها: انتهى التعب.

ثم ﴿وَرَيْحَانٌ﴾؛ رزق طيب ورائحة كريمة وشارة تنعش الروح. وما أطف أن يأتي الريحان بعد الروح، فكأن النعيم لا يرفع الألم فقط، بل يملأ مكانه جمالاً. الله لا يكتفي بأن ينقذ أوليائه من النار، بل يستقبلهم بالكرامة والطيب، ولا يخرجهم من ضيق الدنيا إلى فراغ، بل إلى ﴿جَنَّتْ نَعِيمٌ﴾. والجنة هنا مضافة إلى النعيم حتى كأن النعيم حقيقتها المحيطة؛ ليس فيها جانب جميل وآخر مؤلم، بل نعيم في المكان والزمان والجسد والقلب والصحبة والقرب.

ولاحظ أن السورة قالت: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ﴾، بصيغة موجزة سريعة كأن البشري تندفق دفعة واحدة. لا حاجة إلى مقدمات طويلة، فقد انتهى الامتحان، وجاء وقت التكريم. وما بين ركعة صادقة في ظلمة الليل وهذه البشري صلة لا يراها الناس، وما بين لقمة حرام تركها العبد خوفاً من الله والريحان الذي يستقبله علاقة لا تدرَكها حسابات السوق. نحن نرى العمل ينتهي في لحظته، أما الله فيحفظه ويحوِّله إلى صورة باقية من الجزاء.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ. السلام هو أول عنوان منزلتهم وآخره؛ سلام من الخوف، و سلام من عذاب القبر والآخرة، و سلام يأتيهم من جهتهم المباركة ومن إخوانهم، وشارة بأنهم داخلون في جماعة النجاة. وقد لا يكون صاحب اليمين بلغ مقام السابقين، لكنه يصل إلى بر الأمان، و تغمره الرحمة. وهذا يفتح الرجاء لكل مؤمن يجاهد تقصيره؛ فليس المطلوب أن يدعي لنفسه الكمال، وإنما أن يموت ووجهته إلى الله، ممسكاً بأصل الإيمان، نائباً من خطئه، غير مستكبر عن الحق.

﴿سَلَامٌ لَكَ﴾؛ ما أعذب أن يسمع الإنسان السلام في لحظة يخاف فيها الناس جميعاً! في الدنيا كانت الأخبار تثير القلق، والأبواب قد تخفي وراءها المفاجآت، والمستقبل مجهولاً، أما هذه الكلمة فتغلّق منافذ الخوف: أنت آمن. وكل سلام عرفه المؤمن في الدنيا كان تدريياً قلبياً على حب هذه النهاية؛ السلام الذي نشره بين الناس، فكف لسانه عن أذيتهم، وبده عن ظلمهم، وقلبه عن الحقد عليهم، يعود إليه يوماً آمناً. فمن أراد سلام الآخرة فليكن في الدنيا مصدر سلام للخلق، لا بمعنى ترك الحق أو المداينة فيه، بل بمعنى أن يأمن الناس ظلمه وغدره وفخشه.

ثم تأتي الجهة المظلمة: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ فَنُزْلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٌ﴾. لم يضلوا فقط، بل كذبوا، ولم يكذبوا في مسألة هامشية، بل بالخبر الذي كان يستطيع إنقاذهم. فكان نُزْلهم عند القدوم حميماً، ثم دخولهم ومقاساتهم حر الجحيم. تتكرر كلمة ﴿نُزْلٌ﴾ التي وردت في مشهد أهل الشمال، لتؤكد أن ما ينتظر الإنسان هو ضيافته التي أعدها لنفسه بخياره. ومرة أخرى لا يفرح المؤمن بالمشهد، بل يستعيد ويرتجف، ويدعو الله أن يختم له بالحسنى.

إن الخاتمة ليست أمراً آلياً يملكه الإنسان مجرد انتسابه أو معرفته؛ فالقلوب بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، والعبد محتاج إلى الثبات حتى آخر نفس. ولهذا كان الصالحون مع كثرة أعمالهم يخافون سوء الخاتمة، لا يأساً من الله، بل معرفة بأن النجاة فضل، وأن النفس قد تفتن إن تُركت إلى قوتها. وفي المقابل لا ينبغي للعاصي أن يقنط؛ فإدام الحلقوم لم تبلغه الروح، فالباب مفتوح، وقد تختصر توبة صادقة مسافة طويلة من البعد، لأن الله يفرح بتوبة عبده ويبدل السيئات حسنات لمن صدق.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَّ حَقُّ الْيَقِينِ ۖ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

بعد كل هذه المشاهد - وقوع الواقعة، ورج الأرض، وفس الجبال، وانقسام الناس، ونعيم السابقين، وسلام أصحاب اليمين، وعذاب المكذبين، وآيات النطفة والزرع والماء والنار، وكرامة القرآن، ولحظة خروج الروح - تأتي الخلاصة: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَّ حَقُّ الْيَقِينِ﴾. لم يقل: خبر محتمل، ولا تصور يعين على تهذيب النفس ولو لم يكن حقيقة، بل قال: ﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾؛ الحقيقة التي لا يتطرق إليها باطل، واليقين الذي بلغ غايته.

هناك علم اليقين حين يخبرك الصادق عن النار، وعين اليقين حين تراها، وحق اليقين حين تدخل حقيقتها وتباشر أثرها. وسورة الواقعة تنقل القلب بالكلمة الصادقة حتى يكاد يعاين المشاهد قبل وقوعها، رحمة به لكي يختار الآن، قبل أن ينتقل من علم اليقين إلى مشاهدة لا ينفع عندها الرجوع. إن الوحي يجعل الغيب حاضراً في الضمير حتى لا يفاجئ الإنسان حضوره في المصير. ومن صدق الخبر اليوم نجا من صدمة الحقيقة غداً، ومن عاش يطلب البراهين بعد اكتمال الحجّة سيأتيه يوم تصير فيه نفسه جزءاً من البرهان الذي أنكره.

﴿إِنَّ هَذَا﴾؛ اسم الإشارة يقرب الحقيقة حتى كأنها موضوعة أمام العين. ليست القيامة وراء ضباب الأساطير، بل «هذا» الذي سمعته وصفه، محدد المعالم واضح الطريق. ﴿لهوَّ﴾ تأكيد يطرد التردد، و﴿حقُّ﴾ تنفي عنه الوهم، و﴿اليقين﴾ تنقله إلى أعلى درجات الثبات. كأن السورة تبني جداراً من التوكيدات حول القلب حتى لا تجد الشبهة إليه منفذاً، لأن القضية ليست معلومة ثانوية يمكن أن يخطئ فيها الإنسان ثم تمضي حياته، بل هي المعنى الذي يحدد قيمة الحياة كلها.

إذا كان هذا حق اليقين، فإن كثيراً مما نتعامل معه كحقائق كبرى ليس إلا ظنوناً عابرة. نظن أن الناس سيذكروننا، وأن ما نجعله سحيمينا، وأن الفرصة ستتكرر، وأن العمر سيطول، وأن التوبة يمكن تأجيلها، وأن المظالم ستُنسى. كل ذلك ظن، أما الموت فحق، والبعث حق، والميزان حق، والجنة حق، والنار حق. ومن الغرابة أن يبني الإنسان حياته على ظنون، ثم يعامل اليقين كأنه فكرة بعيدة. الحكمة أن يعكس المعادلة: يستعمل ظنون الدنيا دون أن يطمئن إليها، ويبني جوهر حياته على يقين الآخرة.

وحين يدخل حق اليقين في القلب تتغير مقاييس الخسارة والربح. قد نخسر مالا وتحفظ دينك فتكون راجحاً، وقد تكسب منصباً وتفقد صدقك فتكون خاسراً. قد يهجر الناس لأنك قلت حقاً، وتستقبلك الملائكة بالسلام؛ وقد يصفق لك الناس لأنك أرضيت باطلهم، ثم تقف

وحدك حين تبلغ الروح الحلقوم. الإيمان بالآخرة لا يجعل الإنسان يحتقر الدنيا، بل يجعله يضعها في مكانها: مزرعة لا وطناً أخيراً، وأمانة لا ملكاً مطلقاً، وطريقاً لا غاية.

ثم تختم السورة بما ختمت به مقطع الآيات الكونية: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾. بدأت السورة بوقوع الواقعة التي تخفض وترفع، وانتهت بتعظيم الرب الذي بيده الخفض والرفع. وكأن الطريق كله ينتهي إلى تصحيح صورة الله في القلب؛ فمن عرف عظمته لم يستبعد قدرته على البعث، ولم يتهم حكمته في الجزاء، ولم يصرف عبادته إلى سواه. التسبيح هنا ليس جملة تالية للمعنى، بل موقف الوجود كله بعد انكشاف الحقيقة.

سبح ربك العظيم؛ نزهه عن العجز حين ترى الموت، فهو قادر على الإحياء. ونزهه عن الظلم حين تأخر العدالة، فهناك يوم معلوم يجمع الأولين والآخرين. ونزهه عن الغفلة حين تضع الحقوق في أعين الناس، فلا تضع عنده ذرة. ونزهه عن الحاجة إلى عبادتك، فأنت المحتاج إلى سجودك، وهو الغني عن العالمين. ونزهه عن مماثلة المخلوقين؛ فليس كمثله شيء، ولا يحيط به وهم ولا صورة، ولا يشبهه قربه قرب الأجساد، ولا عظمته عظمة الملوك، بل هو العظيم الذي تسبح له السماوات والأرض ومن فيهن.

والتسبيح «باسم ربك» يجعل الاسم حاضراً في اللسان والقلب والحياة. لا يكفي أن تعرف أن له اسم العظيم، بل ينبغي أن يصبح هذا الاسم قوة تربيك؛ فإذا ضاق بك السبب، تذكرت العظيم، وإذا هددك مخلوق، تذكرت العظيم، وإذا دعتك نفسك إلى معصية في خلوة، تذكرت أن العظيم يراك، وإذا أعجبك عملك، تذكرت أن توفيقك منه. العظمة الإلهية لا تسحق الإنسان المؤمن، بل تحرره؛ لأنه حين يخضع للعظيم وحده يتحرر من الخضوع المزيف لكل عظيم متوهم.

تصل سورة الواقعة إلى نهايتها، لكن القارئ الذي دخل مشاهدتها بقلبه لا يستطيع أن يعود إلى الدنيا بالنظرة نفسها. لقد رأى الأرض التي يمشي عليها وهي تُرج، والجبال التي يظنها ثابتة وهي تصوير هباء منبث، ورأى البشرية وقد سقطت عنها الأسماء المؤقتة وانقسمت إلى ثلاثة أصناف: مقربين، وأصحاب يمين، ومكذبين ضالين. ورأى أن كل إنسان يكتب موضعه في هذا التقسيم بأيامه، وأن المصير ليس مفاجأة منفصلة عن السيرة، بل ظهور كامل لما صنعه الاختيارات في القلب والعمل.

خرج من حدائق السابقين وقد عرف أن القرب أعلى من مجرد النجاة، وأن الذين سبقوا لم ترفعهم دعاوى الانتساب، بل سرعة الاستجابة وصدق التوجه. ورأى أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب، فعلم أن الله لا يضيع تعب المؤمن، وأن كل شوك صبر عليها في طريق الطاعة ستُنزع يوماً، ويبقى له ثمرها بلا ألم. ثم مر بأصحاب الشمال في السموم والحميم، فعرف أن الشهوة إذا قادت الإنسان بعيداً عن الله قد تتحول من لذة عابرة إلى عطش لا يرتوي.

ثم أعادته السورة إلى الأشياء التي يلبسها كل يوم، لكيلا يجعل الإيمان بالآخرة معلقاً في أفق بعيد، نظرت به إلى أصل خلقه، فأدرك أنه لم يخلق النطفة ولم يصنع نفسه، ونظرت إلى زرعه فعرفت أنه يحرث ولا ينشئ سر الحياة، وإلى الماء فعرفت أن العذوبة رحمة لا حقاً ذاتياً، وإلى النار فعرفت أن الله أخرج من الشجر الأخضر قوة تناقض ظاهره. صار الكون بعد السورة مجلس تذكير: كل حبة تقول إن الذي أنبتها قادر على البعث، وكل قطرة تقول إن الرزق من السماء، وكل لهب يقول إن النار حق، وكل جسد نام ثم استيقظ يلوح له بمعنى النشور.

ثم رفعت السورة عينه إلى مواقع النجوم، وربطت عظمة الكون بكرامة القرآن؛ حتى يعلم أن الكتاب الذي بين يديه ليس هامشاً في الحياة، بل تنزيل من رب العالمين. النجوم في مواقعها لا تضطرب، والقرآن في معانيه لا يتناقض، والإنسان وحده هو الذي قد يخرج عن موقع العبودية فيتحول نظامه الداخلي إلى فوضى. فإذا عاد إلى الوحي عاد إلى مداره، وإذا انقطع عنه صار كجرم يريد أن يستقل عن الجاذبية التي تحفظه، فلا يحصد من استقلاله المتوهم الضياع.

وأخيراً أدخلته إلى الغرفة التي لا يحب الإنسان أن يطيل النظر إليها: غرفة الاحتضار. هناك يقف الأقربون، وتبطل دعاوى السيطرة، وتبلغ الروح الحلقوم، ويصير الإنسان بين إشارة ونذارة. في تلك اللحظة لا ينفع اسم بلا حقيقة، ولا شهرة بلا إخلاص، ولا معرفة لم تتحول

عملاً. ينفع قلب سليم، وتوحيد صادق، وتوبة لم تُؤجل، وحق أُدي، وظلم رُد، وعمر حاول صاحبه أن يجعله طريقاً إلى الله.

وسر السورة أنها لا تريد أن تزرع فينا خوفاً يعطل الحياة، بل يقظةً تطهرها. من أيقن بالواقعة لا يهجر الدنيا، وإنما يعمرها بيد أخف تعلقاً وقلب أشد مسؤولية. يعمل، لكنه لا يعبد عمله؛ ويملك، لكنه لا يسمح لما يملك أن يملكه؛ ويحب، لكنه يعلم أن الحب يحتاج إلى أن يُوصل بالله كي لا يتحول الفراق إلى عدم؛ ويفرح، لكنه لا ينسى المنعم؛ ويحزن، لكنه يعرف أن الحزن فصل لا خاتمة. الإيمان بالآخرة لا يطفى ألوان الدنيا، بل ينقذها من أن تدعي الأبدية، ويمنح كل جميل فيها معناه الصحيح بوصفه علامة على جمال أكلٍ ينتظر أهل الإيمان.

يا من قرأت الواقعة، لا تسأل بعد اليوم: هل ستقع؟ فقد قال الله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾. أسأل: أين سأكون حين تقع؟ لا تشغل فقط بأسماء الأصناف، بل ابحث عن علاماتها في قلبك. هل فيك من السابقين سرعة إلى التوبة والخير؟ هل فيك من أصحاب اليقين صدق الإيمان وسلامة الاتجاه؟ أم تسلك إليك خصلة من خصال أهل الشمال: ترف يميئ الحس، أو إصرار يغلق باب الرجوع، أو تكذيب عملي يجعل الآخرة بعيدة عن قراراتك؟

وإذا وجدت في نفسك تقصيراً، فلا تجعل الخوف حائطاً بينك وبين الله؛ اجعله باباً إليه. ما دامت الروح لم تبلغ الحلقوم، فالمشهد لم يحسم، والصفحة لا تزال تقبل كتابة جديدة. تستطيع الآن أن تبدأ سبقاً لم تبدأه بالأمس، وأن ترد مظلمة، وأن تكسر إصراراً، وأن تسقي قلبك من القرآن، وأن تقول لله بصدق: عدت. ورب لحظة توبة صادقة ترفع إنساناً خفضته سنوات الغفلة، فالواقعة خافضة رافعة، والله يرفع إليه الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه.

وحين تشرب ماءً بعد هذه السورة، فلا تشربه كما كنت؛ انظر إلى العذوبة التي كان يمكن أن تكون أجاباً، وقل بقلبك قبل لسانك: الحمد لله. وحين ترى زرعاً، تذكر أنك تحرث وأن الله يزرع، فلا تنسب الثمرة إلى نفسك. وحين توقد ناراً، تذكر القدرة التي أخرجتها من شجرتها، واستعد بالله من الجحيم. وحين تنظر إلى السماء، تذكر مواقع النجوم، ثم انظر إلى المصحف واعرف أي كلام كريم وضعه الله بين يديك. وحين تمر بجنازة، لا تكتفِ بالحزن على الراحل، بل اسمع السؤال يعود إليك: إذا بلغت روحك الحلقوم، فما البشارة التي أعدتها لهذا الوصول؟

هذه هي هدية سورة الواقعة: أن تهيك عيناً ترى النهاية في قلب البداية، والآخرة في تضاعيف الدنيا، والقدرة في النطفة، والرحمة في الماء، والبعث في الزرع، والنذارة في النار، والعظمة في النجوم، والنجاة في القرآن. فإذا استقرت هذه العين في قلبك، لم تعد الواقعة مجرد سورة تلتوها، بل صارت ميزاناً تسير به، وصوتاً يوقظك كلما سحرتك الأسماء العابرة، ويقول لك: لا

تغتر بما سيصير هباءً، ولا تزهد فيما سيصير نعيماً، ولا تؤجل الطريق إلى اليوم الذي لا
تستطيع فيه أن تخطو خطوة واحدة.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.